الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

العدد ٨٦ – ٢٥ فبراير سنة ١٩٣٥ – السنة الثالثة

3 me Année, No. 86.

Lundi-25-2-1935

بدلِ الاشتراك عن سنة

٦٠	فى مصر والسودان
٨٠	فى الأقطار العربية
١٠٠	فى سائر الممالك الأخرى
١٢٠	فى العراق بالبريد السريع
١	ثمن العدد الواحد

الأعلانات يتفق عليها مع شركة الفجر

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الادارة
بشارع البدولى رقم ٣٢
عابدين — القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠

العـــدد ٨٦ « القاهرة فى يوم الاثنين ٢١ ذو القعدة سنة ١٣٥٣ — ٢٥ فبراير سنة ١٩٣٥ » السنة الثالثة

فهرس العـــدد

الأزهر بين الماضى والحاضر

ويل للأزهر من أهله ! كان منيعاً بالدين فابتذلوه بالدنيا ، وعزيزاً بالعلم فأذلوه بالمال ، ومستقلاً فى حمى الله فأخضعوه لهوى الحكم ! وكان سُنَّة واضحة لِهَدْى الشريعة استقام الناس بها منذ ألف عام على عمود واحد ، فشبّهوا وجوهها بالأنظمة الفجّة ، ولبّسوا صورها بالأعلام المستعارة ، ثم وقفوا لدى المفترق المبهم الذى أحدثوه يديرون أعينهم فى الفضاء ، ويردونها من الأمام إلى الوراء ، فلا يرون أقدامهم على أثر ، ولا يجدون وجوههم على سبيل !

كان للأزهر ، على عهدنا القريب ، جلالة تغشى العيون ، وقداسة تملأ الصدور ، لأنه المعقل الوحيد الذى ثبت لحملات الغِيَر فانتهت اليه أمانة الرسول ، واستقرت به وديعة السلف ، واستعصمت فيه لغة القرآن ، واستأمنت اليه آداب العرب ، فأرضه حَرَم لا يُنتهك ، وأهله حمى لا يستباح ، وأمره قدَرٌ لا يُرد ؛ وكان لعلمائه مكانة فى القلوب ، ومهابة فى النفوس ، لأنهم دعاة الله ، وورّاث النبي ، وهداة المحجّة ؛ ينطق على

ألسنتهم الكتاب ، وتمثل في أفعالهم السُّنة ؛ فمحبتهم عقيدة ، وطاعتهم فريضة ، وإشارتهم نافذة

وكان لطلابه كلف به لا يُتهم ، وثقة برجاله لا تحد ، وانقطاع إلى جواره لا يبغون من ورائه غير فقه الدين وتحصيل المعرفة وتجديد حبل الدعوة ، فهم عاكفون على معاناة الدرس ، قانعون بميسور العيش ، لا ينصرفون عن حلقات التعلم بالقاهرة ، إلا إلى حلقات التعليم في الريف

***

كانت صلة العلماء بالحكومة صلة دينية ، تقوم على حسم المشاكل بالقضاء ، وحل المسائل بالفتوى ؛ وكانت صلتهم بالأمة صلة روحية ، يجلون صدأ القلوب بالذكر ، ويكفكفون سفه الجوارح بالموعظة ، ويشفون غل الجوانح بالمؤاخاة ، فكانوا لذلك موضع الاجلال أنى حلوا . كنا نرى العالم اذا نزل مدينة أو قرية كان يوم نزوله تاريخاً لا يُنسى : يأخذ الناس فيها حال من الشعور الصوفي يدفعهم الى رؤيته ، فيهرعون اليه كما يهرعون اليوم الى زعيم الأمة أو الى رئيس الحكومة ، فيتوسمون في أساريره نور الرسالة ، ويتنسمون من أعطافه ريح النبوة ، ويتخففون على يديه من أوزار العيش وتبعات الجهالة . وطلاب الأزهر القديم لا يزالون يذكرون ما كان في نفوسهم لشيوخهم من الحب والتجلة . كانوا يتحلقون حول كرسي الشيخ من غير نظام ولا ضابط ، فيكون لهم على السبق الى الأمام عراك دامٍ وصخب مُعيم ، حتى اذا ما أقبل خشعت الأصوات وسكنت الحركات كأن شيئاً عاق الأنفاس فلا تنسم ، وعقد الشفاه فلا تنبس ! وربما نزا اللجاج على لسان أحدهم أثناء المناقشة فيغضب الشيخ فلا يكون أنكى في عقابه من الاشارة اليه بالخروج من الدرس ، أو الدعاء عليه بالقطيعة من الأزهر ! والقطيعة عن الأزهر كانت أقصى ما يتصوره الأزهري من شقاء الحياة ! فاذا انقضى الدرس وقال الشيخ : (والله أعلم) تضامّت أطراف الحلقة عليه ، وأنحى الطلاب بالقبل على يديه وردنيه ، فما يشق طريقه بينهم إلا بعد لأى

***

تدبر ذلك في نفسك على إجماله وعمومه ، ثم اقرنه إلى ماتسمع اليوم أو تقرأ من خبر الأزهر وحال علمائه وأبنائه ، فهل تجد المعهد هو المعهد والناس هم الناس ؟ إن الأزهر البائد على فوضاه المنظمة كان أجدى على الدين وأعْوَد على الثقافة من هذا الخَلْق المسيخ الذي وقف بين الماضي والحاضر ، وبين الدين والسياسة ، موقفاً يُندي الجبين الصُّلب ، ويوجع الفؤاد المُصْمت !

تقلب بعض زعمائه على فرش الديباج ، وخبُّوا في أفواف الشاهي ، وتأنقوا في ألوان الطعام ، وتنبلوا بالمظاهر الفخمة ، وسردوا أعداد الدنانير على المسابح العطرة . وكان أسلافهم طيب الله ثراهم كما طيب ذِكراهم يتسترون برقعات القطن ، ويتبلغون بقشور البطيخ ، ويسترْوحون النسيم على شرفات المآذن

ثم شايعوا أهواء الناس ، وصانعوا أهل النفوذ ، وجَرَوا في تمكين أمورهم وترفيه نفوسهم على الضراعة والملق ؛ من أجل ذلك فقدوا خطرهم في الخاصة ، وأثرهم في العامة ، وجرُّوا معهم كرامة الدين الى هذا المنحدر

***

ان في بقية السلف من أعلام الأزهر مَفْزعاً من هذه الحال الأليمة . فليعملوا مخلصين لرد هذا المعهد الكريم الى نظامه ، فان شديداً على النفس أن يضطرب فيه الأمر ويشرى به الفساد حتى تطرد طلابه ، وتغلق أبوابه

لقد قرأت بالأمس فصلا عن الاسلام في مجلة شهرية فرنسية يقول كاتبه فيه : « لقد انحسر الاسلام عن بلاده أو كاد ، فلم يبق داوياً متوثباً إلا في الأزهر » فماذا عسى أن يقول هذا المأفون إذا ما قيل له غداً إن هذا الدوى قد سكن ، وهذا التوثب قد قر ؟

لا جرم أن المخلصين من علماء الأزهر وأبنائه أقدر على درء هذه الكارثة متى أنضجوا الرأى وأجمعوا الكلمة ؛ والحكومة القائمة أربأ بعهدها عن هذا الحدث ، وأضنُّ بتاريخها على هذه الصفحة ؛ وليس في مصر ولا في غير مصر ضمير نزيه يرضيه أن تعبث الشهوات الرُّعن بهذا المعقل الديني الذي عصم القرآن ولغته وعلومه من طغيان الأحداث والفتن عشرة قرون

احمد حسن الزيات

زوجـــة إمام

بقية الخبر

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

قال أبو معاوية الضرير : وكنتُ في الطريق الى دار الشيخ أُرَوِّي في الأمر وأمتحِن مذاهبَ الرأي وأقلّبها على وجوهها ، وأنظر كيف أحتال في تأليف ما تنافر من الشيخ وزوجته ؛ فان الذي يسفرُ بين رجل وامرأته إنما يمشي بفكره بين قلبين ، فهو مطفيء نائرة[1] أو مسعّرها ، إذ لا يضع بين القلبين إلا حمقه أو كياسته ، وهو لن يردَّ المرأةَ الى الرأي إلا إذا طاف على وجهها بالضحك ، وعلى قلبها بالخجل ، وعلى نفسها بالرقّة ، وكان حكيماً في كل ذلك ؛ فان عقلَ المرأة مع الرجل عقلٌ بعيدٌ ، يجيء من وراء نفسها ، من وراء قلبها ، وجعلت أنظرُ ما الذي يُفسدُ محلّ الشيخ من زوجته ، ومثلتُ بينه وبينها ، فما أخرج لي التفكيرُ إلا أن حسن خُلُقه معها دائماً هو الذي يستدعي منها سوء الخُلُق أحياناً ؛ فان الشيخ كما ورد في وصف المؤمن : « هينٌ لينٌ كالجمل الأنف[2] ، إن قِيدَ انقادَ ، وإن أُنيخ على صخرة استناخ » والمرأةُ لا تكون امرأةً حتى تطلبَ في الرجل أشياءَ : منها أن تحبّه بأسباب كثيرة من أسباب الحب ؛ ومنها أن تخافه بأسباب يسيرة من أسباب الخوف . فاذا هي أحبته الحب كلّه ولم تخف منه شيئاً وطال سكونُه وسكونُها ، نفرت طبيعتها نفرةً كأنها تنتخيه وتذمّره ليكون معها رجلاً فيخيفها الخوفَ الذي تستكملُ به لذةَ حبها ، إذ كان ضعفها يحب فيما يحبه من الرجل أن يَقسوَ عليه الرجلُ في الوقت بعد الوقت ، لا ليؤذيَه ولكن ليُخضِعَه ، والآمرُ الذي لا يُخافُ إذا عُصي أمره هو الذي لا يعبأ به إذا أُطيع أمره

وكأن المرأة تحتاج طبيعتُها أحياناً الى مصائبَ خفيفةٍ تؤذي برقّةٍ أو تمرُّ بالأذى من غير أن تلمسها به لتتحركَ في طبيعتها معاني دموعها من غير دموعها ؛ فان طال ركودُ هذه الطبيعة أوجدت هي لنفسها مصائبها الخفيفة فكان الزوج إحداها . . . . .

وهذا كله غير الجُرأة والبَذاء فيمن يُبغضن أزواجهن ، فان المرأة إذا فركت زوجها لمنافرة الطبيعة بينها وبينه ، مات ضعفها الأنثويُّ الذي يتم به جمالها واستمتاعها والاستمتاع بها ، وتعقّد بذلك لينُها أو تصلّب أو استحجر ، فتكون مع الرجل بخلاف طبيعتها فينقلب سكرها النسائي بأنوثتها الجميلة عربدة وخلافاً وشراً وصخباً ، ويخرج كلامها للرجل وهو من البغض كأنه في صوتين لا في صوت واحد . ولعل هذا هو الذي أحسه الشاعر العربيُّ بفطرته ــ من تلك المرأة الصخّابة الشديدة الصوت البادية الغيظ ، فضاعف لها في تركيب اللفظ حين وصفها بقوله :

صُلبّة الصيحة صَهصَلِيقِها[3]

قال أبو معاوية : واستأذنت على (تلك) ودخلت بعد أن استوثقت أن عندها بعض محارمها ؛ فقلت : أنعم الله مساءكِ يا أم محمد . قالت : وأنت فأنعم الله مساءك . فأصغيتُ للصوت فاذا هو كالنائم قد انتبه يتمطى في استرخاء وكأنها تقبلني به وتردُّني معاً ، لا هو خالصٌ للغضب ولا هو خالص للرضى .

فقلت : يا أم محمد إني جائع لم أَلِمّ اليوم بمنزلي . فقامت فقربت ما حضر ؛ وقالت معذرة يا أبا معاوية ، فانما هو جهدُ المُقِلّ وليس يعدو إمساك الرَّمَق . فقلت إن الجوعان غيرُ الشهوان ؛ والمؤمن يأكل في معى واحد[2] ولم يخلق الله قمحاً للملوك وقمحاً غيره للفقراء

ثم سميتُ ومددتُ يدي أتحسسُ ما على الطّبقَ ، فاذا كِسَرٌ من الخبز معها شيءٌ من الجزر المسلوق فيه قليلٌ من الخل والزيت ؛ فقلت في نفسي هذا بعض أسباب الشر . وما كان بي الجوعُ ولا سدُّه . غير أني أردتُ أن أعرف حاضرَ الرزق في دار الشيخ فان مثل هذه القِلّة في طعام الرجل هي عند المرأة قِلّةٌ من الرجل نفسه ؛ وكل ما تفقدُه من حاجاتها وشهوات نفسها فهو عندها فقرٌ بمعنيين : أحدُهما من الأشياء والآخر من الرجل . كلما أكثر

(١) النائرة الغضب

(٢) أي المأنوف ويسميه العامة (المخزوم) وهو الذي عقر أنفه بالخشاش فيقاد منه فيكون ذلولا سمحاً

(٣) هذا من عجائب اللغة العربية ، إذا زاد المعنى زادوا له في اللفظ . ورواية لسان العرب : « شديدة الصيحة » وليست بشيء فليصححها من يفتقي اللسان من القراء

(٢) في بعض الأثر . المؤمن يأكل في معى واحد ، والكافر يأكل في سبعة أمعاء . وهذا الحديث رمز عجيب لبهيمية من لا يرى الدنيا إلا الدنيا فقط

الرجل من إتحافها كَثُر عندها وإن أقلّ قلّ . وإنما خلقت المرأة بطناً يلدُ ، فبطنُها هو أكبرُ حقيقتها ، وهـذه غايتُها وغايةُ الحكمة فيها . لا جَرَمَ كان لها في عقلها مَعِدةٌ معنوية ؛ وليس حبُّها للحلِيِّ والثياب والزينة والمال ، وطماحُها اليها واستهلاكُها في الحرص عليها والاستشراف لها — إلا مظهراً من حكم البطن وسُلطانه ؛ فذلك كله إذا حقّقته في الرجل لم تجده عنده إلا من أسباب القوة والسُّلطة ، وكان فقدُه من ذرائع الضعف والقِلّة . فاذا حققته في المرأة ألفيته عندها من معاني الشِّبَع والبطَر ، وكان فقدُه عندها كأنه فنٌّ من الجوع ، وكانت شهوتُها له كالقَرَم إلى اللحم عند من حُرِم اللحم . وهذا بعضُ الفرق بين الرجال والنساء ؛ فلن يكون عقلُ المرأة كعقل الرجل لمكان الزيادة في معانيها « البطنية » نُحِسبتْ لها الزيادةُ ههنا بالنقص هناك ؛ فهن ناقصاتُ عقلٍ ودين كما ورد في الحديث . أما نقصُ العقل فهذه علته ؛ وأما الدينُ فلغلَبة تلك المعاني على طبيعتها كما تغلب على عقلها . فليس نقصُ الدين في المرأة نقصاً في اليقين أو الايمان فانها في هذين أقوى من الرجل ؛ وإنما ذاك هو النقصُ في المعاني الشديدة التي لا يكمل الدينُ إلا بها ؛ معاني الجوع من نعيم الدنيا وزينتها ، وامتدادِ العين اليها واستشرافِ النفس لها ؛ فان المرأة في هذا أقل من الرجل . وهي لهذه العلة ما برحت تُؤْثِرُ دائماً جمالَ الظاهر وزينته في الرجال والأشياء دون النظر إلى ما وراء ذلك من حقيقة المنفعة

* * *

قال أبو معاوية : وأريتها أني جائع فنهشتُ نهشَ الأعرابي كيلا تفطنَ إلى ما أردتُ من زَعْم الجوع ، ثم أحببتُ أن أستدعيَ كلامَها وأستميلَها لأن تضحكَ وتُسَر ، فأغيِّرَ بذلك ما في نفسها فيجدَ كلامي إلى نفسها مذهباً . فقلت يا أم محمد : قد تحرَّمتُ بطعامك ووجب حقي عليك ، فأشيري عليّ برأيك فيما أستصلحُ به زوجتي فانها غاضبة عليّ وهي تقول لي : والله ما يُقيم الفأرُ في بيتك إلا لحب الوطن . . . وإلا فهو يسترزقُ من بيوت الجيران

قالت : وقد أعدَمتْ حتى من كِسَر الخبز والجزر المسلوق ؟ اللهَ منك ! لقد استأصلتَها من جذورها ؛ إن في أمراض النساء الحمّى التي اسمها الحمّى ، والحمّى التي اسمها الزوج . . .

فقلت : الله الله يا أم محمد ؛ لقد أيسَرتِ بعدنا حتى كأن الخبز والجزر المسلوق شيءٌ قليل عندك من فَرْط ما يتيسّر ؛ أو ما علمتِ أن رزق الصالحين كالصالحين أنفسهم ، يصومُ عن أصحابه اليومَ واليومين . . . وكأنكِ ما سمعتِ شيئاً من أخبار أمهات المؤمنين أزواج رسول الله صلى الله عليه وسلم ونساءِ أصحابه رضوانُ الله عليهم ، فما خيرُ امرأة مسلمةٍ لا تكون بأدبها وخُلُقها الاسلاميّ كأنها بنتُ إحدى أمهات المؤمنين ؟

أفرأيتِ لو كنتِ فاطمةَ بنتَ محمد صلى الله عليه وسلم ؛ أفكان ينقلك هذا إلى أحسنَ مما أنتِ فيه من العيش ؛ وهل كانت فاطمةُ بنتَ ملكٍ تعيشُ في أحلام نفسها أو بنتَ نبي تعيش في حقائق نفسها العظيمة ؟

تقولين إنني استأصلتُ أمَّ معاوية من جذورها ؛ فما أمُّ معاوية وما جذورُها ؟ أهي خيرٌ من أسماء بنت أبي بكر صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد قالت عن زوجها البطل العظيم : تزوّجني وماله في الأرض من مال ولا مملوك ولا شيء غيرُ فَرَسه وناضِحه(1) فكنت أعلفُ فرسه وأكفيه مؤنته وأسوسُه ، وأدُقُّ النَّوى لناضحه وأعلفُه ، وأستقي الماء وأخرزُ غَرْبَه(2) وأعجن ؛ وكنت أنقلُ النوى على رأسي من ثلثي فرسخ حتى أرسل إليّ أبو بكر بجارية فكفتني سياسة الفرس فكأنما أعتقني

هكذا ينبغي لنساء المسلمين في الصبر والإباء والقوة والكبرياء بالنفس على الحياة كائنةً ما كانت ، والرضى والقناعة ومؤازرة الزوج وطاعته واعتبار ما لهن عند الله لا ما لهنّ عند الرجل ، وبذلك يرتفعْنَ على نساء الملوك في أنفسهن ، وتكون المرأة منهن وما في دارها شيء ، وعندها أن في دارها الجنة . وهل الاسلامُ إلا هـذه الروحُ السماويةُ التي لا تهزمها الأرض أبداً ولا تُذلها أبداً ما دام يأسها وطمعُها معلّقين بأعمال النفس في الدنيا لا بشهوات الجحيم من الدنيا ؟

هل الرجلُ المسلم الصحيحُ الاسلام إلا مثلُ الحرب يثور حولها غبارها ويكون معها الشظَفُ والبأسُ والقوةُ والاحتمالُ والصبر ، إذ كان مفروضاً على المسلم أن يكون القوة الانسانية

(1) النواضح الابل يستقى عليها واحدها ناضح وسائقها النضاح

(2) الغرب الدلو العظيمة تتخذ من جلد الثور

لا الضعف ، وأن يكون اليقينَ الانسانيّ لا الشك ، وأن يكون الحقّ في هذه الحياة لا الباطل ؟

وهل امرأةُ المسلم إلا تلك المفروضَ عليها أن تُمِدَّ هذه الحربَ بأبطالها وعَتادِ أبطالها وأخلاقِ أبطالها ثم ألا تكون دائماً إلا من وراء أبطالها ؟ وكيف تلد البطل إذا كان في أخلاقها الضِّعةُ والمطامعُ الذليلةُ والضجرُ والكسلُ والبلادة ؟ ألا إن المرأة كالدار المبنيّة لا يَسهُل تغييرُ حدودها إلا إذا كانت خرابا

فاعترضته امرأةُ الشيخ وقالت : وهل بأسٌ بالدار إذا وسّعتْ حدودُها من ضيق ، أتكون الدار في هذا الى نقصها أو تمامها ؟

قال أبو معاوية : فكِدتُ أنقطعُ في يدها ، وأحببتُ أن أمضي في استمالها فتركتُها هنيهةً ظافرةً بي وأريتها أنها شدّتني وثاقاً ، وأطرقت كالمفكّر . ثم قلت لها : إنما أحدثك عن أم معاوية لأبي معاوية ؛ وتلك دارٌ لا تملك غير أحجارها وأرضها فبأي شي تتسع ؟

زعموا أنه كان رجل عامل يملك دُوَيرةً قد التصقت بها مساكنُ جيرانه وكانت له زوجةٌ حمقاء ما تزال ضيقةَ النفس بالدار وصغرها كأن في البناء بناء حول قلبها ؛ وكانا فقيرين كأم معاوية وأبي معاوية ؛ فقالت له يوماً : أيها الرجل ألا توسع دارك هذه ليعلم الناس أنك أيسرت وذهب عنك الضرُّ والفقر ؟ قال : فبماذا أوسّعها وما أملك شيئاً ، أأُمسك بيميني حائطاً وبشمالي حائطاً فأمدُّهما أُباعِدُ بينهما . . . . وهبني ملكتُ التوسعةَ ونفقتها فكيف لي بدور الجيران وهي ملاصقةٌ لنا بَيْتاً بَيت ؟

قالت الحمقاء : فاننا لا نريد إلا أن يَتعالَم الناسُ أننا أيسرنا ؛ فاهدِم أنت الدار فانهم سيقولون لولا أنهم وجدوا واتسعوا وأصبح المال في يدهم لما هدموا . . .

قال أبو معاوية : وغاظتني زوجةُ الشيخ فلم أسمع لها همسةً من الضحك لمثل الحمقاء وما اخترعتُه إلا من أجلها ، كأنها تريد أن يذهب عملي باطلاً . فقلت : وهل تتسع أمُّ معاوية من فقرها إلا كما اتسع ذلك الأعرابي في صلاحه ؟

قالت : وما خبر الأعرابي ؟

قلت : دخل علينا المسجد يوماً أعرابي جاء من البادية وقام يصلي فأطال القيام والناس يرمقونه ، ثم جعلوا يتعجبون منه ، ثم رفعوا أصواتهم يمدحونه ويصفونه بالصلاح . فقطع الأعرابيُّ صلاته وقال لهم : مع هذا إني صائم . . .

قال أبو معاوية : فما تمالكتْ أن ضحكت وسمعتُ صوت نفسها وميزت فيه الرضى مقبلاً على الصلح الذي أتسبب له . ثم قلت :

وإذا ضاقت الدار فلِمَ لا تتسع النفسُ التي فيها ؟ المرأة وحدها الجوّ الانساني لدار زوجها ، فواحدةٌ تدخلُ الدار فتجعل فيها الروضة ناضرةً مترَوِّحةً باسمةً ، وإن كانت الدارُ قَحِطةً مَسْحوُتةً ليس فيها كبيرُ شيء ، وامرأة تدخلُ الدارَ فتجعل فيها مثلَ الصحراء برمالها وقيظِها وعواصفها ، وإن كانت الدار في رياشها ومتاعها كالجنة السُّندُسِيّة ، وواحدة تجعل الدار هي القبر . والمرأةُ حقُّ المرأة هي التي تترك قلبها في جميع أحواله على طبيعته الانسانية ، فلا تجعل هذا القلبَ لزوجها من جنس ما هي فيه من عيشة : مرة ذهباً ، ومرة فضة ، ومرة نحاساً أو خشباً أو تراباً ، فانما تكون المرأة مع رجلها من أجله ومن أجل الأمة معاً ؛ فعليها حقان لا حقٌّ واحدٌ أصغرُها كبير . ومن ثَمّ فقد وجب عليها إذا تزوجت أن تستشمر الذات الكبيرة مع ذاتها ، فان أغضبها الرجلُ بهفوة منه تجافَتْ له عنها وصفَحتْ من أجل نظام الجماعة الكبرى ، وعليها أن تحكم حينئذ بطبيعة الأمة لا بطبيعة نفسها ، وهي طبيعة تأبى التفرق والانفراد ، وتقوم على الواجب ، وتضاعف هذا الواجب على المرأة بخاصّة

والاسلامُ يضعُ الأمةَ ممثّلةً في النّسل بين كل رجل وامرأته ، ويوجب هذا المعنى إيجاباً ليكون في الرجل وامرأته شيء غير الذكورة والأنوثة يجمعهما ويقيّد أحدهما بالآخر ، ويضعُ في بهيميّتهما التي من طبيعتها أن تتفق وتختلف ، إنسانيةً من طبيعتها أن تتفق ولا تختلف

ومتى كان الدينُ بين كل زوج وزوجته مهما اختلفا وتدابرا وتعقدّت نفساهما ، فان كلّ عقدة لا تجيء إلا ومعها طريقةُ حلّها ، ولن يُشادّ الدينَ أحدٌ إلا غلبه ، وهو اليُسر والمُساهَلة والرحمةُ والمغفرةُ ولينُ القلب وخشيةُ الله ، وهو العهدُ والوفاء والكرمُ والمؤاخاةُ والانسانية ، وهو اتساعُ الذات وارتفاعها فوق كل ما تكون به منحطةً أو ضيّقة

قال أبو معاوية : فحقّ الرجل المسلم على امرأته المسلمة هو

حق بن الله ثم من الأمة ثم من الرجل نفسه ثم من لطف المرأة وكرمها ثم مما بينهما معاً . وليس عجيباً بعد هذا ما روينا عن النبي صلى الله عليه وسلم : « لو كنت آمراً أحداً أن يسجد لأحد لأمرتُ النساء أن يَسجدْنَ لأزواجهن لما جعل الله لهم عليهن من الحق »

وهذه عائشة أم المؤمنين قالت : يا معشر النساء لو تعلمْن بحق أزواجكن عليكن ، لجعلت المرأةُ منكن تمسح الغبار عن قدمي زوجها بِحُرّ وجهها

* * *

قال أبو معاوية : وكأن الشيخ قد استبطأني وقد تركته في فِناء الدار ، وكنت زوّرتُ في نفسي كلاماً طويلاً عن فروته الحقيرة التي يلبسها ، فيكون فيها من بذاذة الهيأة كالأجير الذي لم يجد من يستأجره فظهر الجوع حتى على ثيابه ... وقد مرّ بالشيخ رجل من المُسَوِّدة(١) وكان الشيخ في فروته هذه جالساً في موضع فيه خليج من المطر ، فجاءه المسوّد فقال قم فاعبُر بي هذا الخليج ، وجذبه بيده فأقامه وركبه والشيخ يضحك

وكنت أريد أن أقول لأم محمد : إن الصحو في السماء لا يكون فقراً في السماء ، وإن فروة الشيخ تعرف الشيخ أكثر من زوجته ، وإن المؤمن في لذات الدنيا كالرجل الذي يضع قدميه في الطين ليمشي ، أكبر همّه ألا يجاوز الطينُ قدميه

ولكن صوت الشيخ ارتفع : هل عليكم إذْن ؟

قال معاوية : فبَدرْتُ وقلت : بسم الله ادخل ؛ كأني أنا الزوجة .. وسمعت همساً من الضحك ؛ ودخل أبو محمد فجلس الى جانبي ، وغمزني في ظهري غمزة ؛ فقلت : يا أم محمد إن شيخك في ورعه وزهده ليشبعه ما يشبع الهدهد ، ويرويه ما يروي العصفور ، ولئن كان متهدماً فانه جبل علم ، « ولا تنظري إلى عمش عينيه ، وحموشة ساقيه ، فانه إمام وله قدْرٌ » (٢)

فصاح الشيخ : قم أخزاك الله ، ما أردت إلا أن تعرفها عيوبي !

قال أبو معاوية : ولكني لم أقم ، بل قامت زوجة الشيخ فقبلت يده .

طنطا مصطفى صادق الرافعي

(١) الذين يلبسون السواد وهم شيعة العباسيين

(٢) ما بين القوسين هو الوارد في التاريخ وعليه بنينا هذه القصة

الدعوة الفاطمية السرية

ضوء على موضوعها وغايتها

للأستاذ محمد عبد الله عنان

لما قامت الدعوة الفاطمية بمصر ، وامتد سلطان الشيعة السياسي بين المغرب وأقاصي الشام ، عني الفاطميون أشد العناية بالمسائل المذهبية ، وعملوا على بث العقائد والمبادئ الشيعية بكل الوسائل ، واتخذت هذه الدعاية صفة رسمية في مجالس الحكمة الشهيرة التي كانت تنظم بادئ بدء في القصر الفاطمي وفي الجامع الأزهر تحت رعاية الخليفة نفسه ، ويقوم بتنظيمها قاضي القضاة أو داعي الدعاة ؛ ثم أنشئت لها بعد ذلك جامعة رسمية خاصة هي دار الحكمة الشهيرة التي أنشأها الحاكم بأمر الله سنة ٣٩٥ هـ (١٠٠٥ م) ، ولبثت عصراً تقوم ببث الدعوة الفاطمية السرية في صور وأساليب مازال يحيط بها الخفاء والغموض . ولقد تقلبت دعوة الشيعة قبل ظفرها السياسي الحاسم على يد الخلفاء الفاطميين في أدوار ومراحل مختلفة ، وتشعبت مذاهبها وإمامتها ، فظهرت الدعوة الاسماعيلية أولاً في ثوب دعوة دينية سرية ؛ ثم كانت فورة القرامطة التي قامت عليها وانتسبت اليها ؛ ثم كان ظفر الفاطميين ، وقيام الخلافة الفاطمية ، فاتخذت الدعوة الشيعية بذلك لونها السياسي الواضح الى جانب لونها الديني ، وأدرك الفاطميون ما للدعاية الدينية من أثر في توطيد الملك السياسي ، فعملوا على بث مبادئهم وتعاليمهم بقوة وذكاء ، ووضعوا لذلك نظماً ومراتب سرية ، كانت دار الحكمة القاهرية مجمعها ومبعث وحيها

وقد اتخذت هذه الدعوة في عصر الحاكم بأمر الله لوناً من الخفاء والعنف ، لم تتخذه في أي عصر آخر ، يسبغه عليها خفاء الحاكم وعنفه ، وغريب تصرفاته وأهوائه . وكان الحاكم بأمر الله شخصية جريئة مدهشة برغم اضطرابها وتناقضها ، ترتفع أحياناً في سماء التفكير حتى لتزعم السمو فوق البشر وتهيم في دعوى الألوهية ؛ وتنحط في تصرفاتها الى درك الجنون . وكان ذلك

الذهن الهائم يشغف بنظريات الخفاء والعالم الآخر ، ويهيم فى غمر المباحث الروحية والفلسفية ، ويفيض من خفائه وشذوذه على جماعة من الدعاة الأذكياء الذين يحشدهم الحاكم حوله لينظموا معه وسائل الدعوة المذهبية السرية ، وليحملوا دونه تبعة ما تعرض من الأقوال والنظريات الجريئة الممعنة فى الالحاد والهدم . ومن الحقائق المعروفة أن معظم الكتب والوثائق المذهبية التى وضعت فى هذا العصر قد دثرت ومحت معالمها يد الدول الخصيمة ، ولم نتلق عن هذه الدعوات السرية سوى قليل من الرسائل والشذور التى نقلها الينا بعض المؤرخين المتأخرين . على أن هذه الوثائق القليلة التى انتهت الينا تلقى مع ذلك شيئاً من الضياء على طبيعة هذه المبادئ والأقوال الخفية التى عمل الدعاة الفاطميون كثيراً لبثها ، والتى بعثت فى عصرها الى أصول الاسلام الحقيقية كثيراً من سحب الزيغ والريب

ومن هذه الوثائق طائفة غريبة من الرســـائل الفلسفية الكلامية تحتفظ بها دار الكتب المصرية ، وهى متنوعة فى موضوعها ، ولكنها متحدة فى أسلوبها وتدليلها وغايتها ؛ ويبدو من تلاوتها لأول وهلة أن موضوعها إنما هو جزء من الدعوة السرية الفاطمية ، وأنها كتبت فى أواخر عصر الحاكم بأمر الله ، وأنها حسبما يدعى كاتبها قد وضعت بوحيه وإرشاده ، وأحياناً بالتلقى عنه . أما كاتبها فمن هو ؟ فى معظم هذه الرســائل يقدم لنا هذا الداعية الغريب نفسه ، ويذكر لنا اسمه وهو « حمزة بن على ابن أحمد » وهو اسم قلما تذكره سير العصر ، ولا تقدم لنا أى تعريف شاف عن صاحبه ، وكل ما نعرفه أنه فارسى من مقاطعة زوزان ، وكان عاملاً يشتغل بصنع اللباد ، وفد على القاهرة حوالى سنة ٤٠٥هـ وانتظم بين الدعاة ، وخاض غمار الجدل الدينى الذى كانت تضطرم به مصر يومئذ . ومما تجدر ملاحظته أن معظم الدعاة والملاحدة الذين خرجوا على الاسلام وحاربوه باسمه ينتمون الى أصل فارسى ؛ بيد أنا نستطيع أن نعرف من هذه الرسائل كثيراً عن شخصيته وعن مهمته ؛ فهو بلا ريب من أكابر الدعاة السريين الذين اتصلوا بالحاكم بأوثق الصلات ، وتلقوا وحيه ، وبثوا دعوته ، وكان لهم أكبر النفوذ فى التوجيه الخفى لكثير من مسائل العصر ؛ وسنرى حين نعرض الى مهمته الحقيقية والى رســائله الغريبة أنه يقدم لنا نفسه أيضاً فى صفة النبوة ، ويصف لنا بعض أعماله بالمعجزات

ولدينا من هذه الرسائل مجموعتان : إحداهما فتوغرافية نقلت عن مخطوط محفوظ بالعراق ، والثانية خطية ، وقد اقتنتها دار الكتب أخيراً [1] ، والمجموعة الأولى أكبر وأعم من الثانية ، وبها كثير من الرســائل التى وردت فيها ؛ غير أن الثانية (الخطية) تحتوى أيضاً على بعض رسائل لم ترد فى الأولى . وتسمى المجموعة الأولى فى صفحة العنوان « بالرسالة الدامغة » وتنعت بأنها رد على النصيرى (الفاسق) وهو ما يقوله لنا كاتبها أيضاً فى الديباجة ؛ وفى معظم هذه الرسائل يذكر لنا الكاتب اسمه وهو حمزة بن على . ولكن هناك مجموعة ثالثة تختلف فى موضوعها عن المجموعتين السابقتين ، وليس لها عنوان ، ولم يذكر فيها اسم الكاتب ، ولكنا لا نشك فى أنها من تأليف حمزة بن على نفسه لما بينها وبين الرسائل الأخرى من التشابه الواضح فى الروح واللهجة والأسلوب [2] . وسنرجئ الكلام عليها الآن ؛ ونبدأ ببحث رسائل هذا الداعية الغريب ، حمزة بن على ، ونحاول أن نستخرج منها بعض الحقائق التاريخية التى ما زالت تقدم إلينا فى أثواب من الريب والغموض والتناقض ، والتى كانت أعظم ظاهرة فى عصر الحاكم بأمر الله ، وكانت مستقى لكثير من النزعات والأهواء المدهشـة التى أحاطت تلك الشخصية الغريبة بسياج كثيف من الخفاء والروع

***

من الحقائق التاريخية المعروفة أن بعض الدعاة الملاحدة قد دعا إلى ألوهية الحاكم بأمر الله ، وأن الحاكم كان يغذى هذه الدعوة ويعدها بتأييده . وقد ذكر لنا ذلك أكثر من مؤرخ ، فى مقدمتهم ابن الصابى ، وهو كاتب معاصر ، وشمس الدين سبط ابن الجوزى ، والذهبى [3] ؛ وكان فى مقدمة هؤلاء الدعاة شخص يدعى بالأخرم ، زعم ألوهية الحاكم ودعا إليها جهراً فى جامع عمرو

(١) تحفظ المجموعة الأولى برقم ٥٤ عقائد النحل ، وتحفظ الثانية برقم ١٣٣ عقائد النحل

(٢) تحفظ هذه المجموعة برقم ٣٥ عقائد النحل

(٣) نقل الينا صاحب النجوم الزاهرة روايات هؤلاء المؤرخين الثلاثة (ج ٤ ص ١٨٣ و ١٨٤)

مع نفر من أصحابه ، فثار الناس بهم ومزقوهم وفر الأخرم ؛ ثم قام بهذه الدعوة داعية آخر هو محمد بن اسماعيل الدرزى ، وكان أوفر ذكاء وبراعة ، فصاغ دعوته فى مذهب منظم ذى قواعد وأصول خاصة ، وألف كتاباً فى ذلك ؛ فقربه الحاكم وتمكن نفوذه لديه حتى غدا أقوى رجل فى الدولة ؛ ولكنه لما حاول إذاعة مذهبه والدعوة اليه بجامع القاهرة (الأزهر) ثار الناس عليه ، فالتجأ إلى القصر ، فحاصرته الجموع ، وأنكره الحاكم خوفاً من الثورة ، وعاونه على الفرار ؛ فسار إلى الشام ، ونزل ببعض قرى بانياس ، ونشر دعوته ، فكانت أصل مذهب الدروز الشهير ؛ وقوامه القول بالتناسخ وحلول الروح ؛ وأن روح آدم انتقلت إلى على بن أبي طالب ، ثم انتقلت روح على إلى الحاكم بأمر الله

ثم ظهرت الدعوة كرة أخرى على يد حمزة بن على ، والظاهر أن حمزة عمل مدى حين مع الدرزى ثم اختلف معه وخاصمه ؛ كما يبدو ذلك فى إحدى رسائله [١] . وفى هذه الرسائل العجيبة يشرح لنا حمزة مذهبه فى «ألوهية» الحاكم بأمر الله ، ويقدم الينا شروحه وأسانيده ، ويحاول أن يعلل لنا كل ما ارتكبه الحاكم من الأعمال والاجراءات الشاذة ويتخذ منها سنداً لنظريته . وقد نسقت هذه الرسائل ، وهى ثمانية ، على حدة فى المجموعة المخطوطة الصغرى التى اقتنتها دار الكتب أخيراً ، وأشرنا اليها فيما تقدم ؛ ويلوح لنا أن هذه المجموعة تكون وحدة متصلة منتظمة ، وأن ما أدرج منها فى المجموعة الأخرى قد أدرج على سبيل الاختيار العام من مؤلفات الكاتب ؛ ولهذا نؤثر الاعتماد عليها فى عرض قواعد هذه الدعوة الغريبة التى كادت تحدث فى هذا العصر ثغرة خطيرة فى صرح الاسلام ومبادئه الحقيقية كتلك التى أحدثتها فورة القرامطة قبل ذلك بنحو قرن

يفتتح الداعى كتابه بما يسميه « ميثاق ولى الزمان » ، وفيه صورة الشهاده بالتبرؤ من جميع الأديان الأولى والدعوة إلى الدين الجديد ، أى عبادة الحاكم ؛ ثم يحدثنا عن أصل العالمين وبدء الخليقة فى عبارة غامضة ويقول إن أصل العالم هو البرودة والحرارة ؛

(١) راجع الرسالة الرابعة الموسومة بالغاية والنصيحة (ص ١٢٥ — ١٣٦ من المخطوط)

ويقدم الينا بعد ذلك خلاصة موجزة عن معركة على ومعاوية وبدء الحركة الشيعية ؛ ثم يصف الحاكم بأنه « مولانا القائم بذاته ، المنفرد عن مبتدعاته ، جل ذكره ، أورا العالم قدرة لاهوتيه مالم يقدر عليه ناطق فى عصره ولا أساس فى دهره ... »[١] ويطلق عليه لقب « قائم الزمان » ، فى جميع مراحل الدعوة رمزاً إلى القول بالحلول والتناسخ ، وأنه هو الرمز الحى القائم . ويعرض الداعى بعد ذلك فى جرأة إلى قواعد الاسلام ، وإلى ما يأتى فى شأنها فى مجالس الحكمة الباطنية ؛ وهنا نستطيع أن نظفر بلمحة من الضياء على موضوعات تلك المجالس السرية الشهيرة التى لبثت عصراً تعقد بالقصر ثم انتظمت بعد ذلك فى جامعة خاصة هى دار الحكمة ؛ وأول ما نعرف هو أن السرية كانت قاعدة أساسية لهذه المجالس ، وأن من يجرؤ على إفشاء مناقشاتها يعتبر منافقاً وخارجاً يستحق اللعنة والعقاب [٢] . وقد نقل إلينا المقريزى بياناً ضافياً عن المبادئ الكلامية العامة التى كانت تدور عليها الدعوة الفاطمية السرية فى مراتبها التسع ؛ ولكن الداعى يتناول هنا بعض الشروح الخاصة ؛ فيحدثنا عن الزكاة مثلاً بأنها فى الحقيقة ليست كما تلقى إلى الناس ؛ بل هى الاعتراف بولاية على بن طالب والأئمة من ذريته والتبرى من أعدائه أبى بكر وعثمان ، وأن معناها الباطن هو فى الحقيقة « توحيد مولانا جل ذكره ، وتزكية قلوبكم وتطهيرها من الحالتين جميعاً ، وترك ما كنتم عليه قديماً » [٣] . وعن الصوم بأنه من الناحية الباطنة صيانة القلوب بتوحيد مولانا جل ذكره . أما الحج ورسومه فيحمل عليها الداعى بشدة ، ويصفها بأنها « من ضروب الجنون » وليس أدل على ذلك من أن قائم الزمان (الحاكم) قد قطع الحج والكسوة النبوية ، أعواماً طويلة ؛ ومعنى الحج فى الحقيقة والباطن « هو توحيد مولانا »[٤] . وأما ترك الحاكم للصلاة والنحر (فى عيد الأضحى) فهو تحليل ذلك للعباد ، وقد أبطل الحاكم صلاة العيد وصلاة الجمعة بالجامع الأزهر ، وأسقط الزكاة ، ومعنى ذلك أنه يحل للعباد (عباده) أن يقتدوا به فى ذلك « إذ كان إليه المنتهى ،

(١) ص ٢٥ من المخطوط

(٢) ص ٣٩ من المخطوط

(٣) ص ٣٥ من المخطوط

(٤) ص ٤٤

ومنه الابتداء فى جميع الأمور »[١]

ويؤرخ الداعى هذا القسم الأول ، وهو القسم التمهيدى من كتابه بشهر صفر سنة ثمان وأربعمائة من الهجرة (٤٠٨ هـ) ؛ ويقول لنا إن هـذه السنة « هى أول سنين ظهور عبد مولانا ومملوكه ، هادى المستجيبين ، المنتقم بسيف مولانا جل ذكره ... الخ » ، ومعنى ذلك أن حمزة بن على كان ينتحل فوق صفة الداعى ، صفة الرسالة أو النبوة ، وسنرى أنه ينتحلها بعد ذلك صراحة . وهو يرجع بدء رسالته إلى هـذا التاريخ ؛ ثم يقول لنا فى خاتمة رسالته الأولى المسماة « بدء التوحيد لدعوة الحق » ، إن سنة ٤٠٨ هـ أيضاً « أول سنين قائم الزمان » أعنى بدء الزعم « بألوهية » الحاكم بأمر الله ، على يد هذا الداعى . وقد كان من قبل ثمة دعاة آخرون روجوا لهذا الزعم كما قدمنا ؛ والظاهر أن حمزة هو آخر من ظهر من حشد أولئك الملاحدة فى عصر الحاكم ، لأن الحاكم لم يطل أمد حكمه بعد ذلك سوى ثلاثة أعوام وبضعة أشهر ، وكان مصرعه فى شوال سنة ٤١١ هـ فى ظروف غامضة ، اتخذها الدعاة مستقى جديداً للزعم والأرجاف

ثم تأتى بعد ذلك الرسائل الثمان ؛ والأولى هى « بدء التوحيد لدعوة الحق » وفيها يدعو حمزة إلى « ألوهية » الحاكم ، ويحاول أن يبرر إبطاله لأحكام الشريعة بأن محمداً (ص) قد نسخ كل الشرائع السابقة ، فكذلك ينسخ الحاكم شريعة محمد[٢] وينشئ له شريعة خاصة . وفى الرسـالة الثانية وهى « ميثاق النساء » يتحدث الداعى عن واجبات النساء فى الطاعة والتوحيد والبعد عن الفساد والدنس ، وألا يشغلن قلوبهن بغير توحيد « مولانا » وأن يكن صادقات وفيات فى طاعته ، وأن يتركن ما كن عليه من قبـل[٣] ، وفى الرسالة الثالثة وهى « رسالة البلاغ والنهاية فى التوحيد » يوصى الداعى بعبادة الحاكم ، والاقرار بوحدته ، ويقول إنه رفعها بنفسه إلى « الحضرة اللاهوتية » ، فى شهر المحرم الثانى من سنيه المباركة (المحرم سنة ٤٠٩) ، وأنها نسخت عن خط قائم الزمان بغير تحريف ولا تبديل[٤] ؛ وفى هذه العبارة ما يستوقف النظر ؛ ذلك أنها تعنى أن الحاكم بأمر الله قد اشترك فى تأليف بعض هـذه الرسائل سواء بالكتابة أو الاشراف على كتابتها ، وأنه كان يرعى هذه الدعوة ويشجعها بنفسه ؛ وهنا أيضاً يعرض الداعى جوهر دعوته ولباب مذهبه ، أعنى فكرة الحلول ، فيزعم أنه من الخطأ أن يعتبر الحاكم ابناً للعزيز أو ينعت بأنه أبو على ؛ ذلك لأنه فى زعمه « المولى سبحانه هو هو فى كل عصر وزمان » يظهر فى صورة بشرية « كيف يشاء وحيث يشاء »[١] . وفى الرسالة الرابعة وعنوانها « الغاية النصيحة » يحاول الداعى أن يقيم المفاضلة بين الاسلام أو دين محمد والدين الجديد . وفى الخامسة وهى « كتاب فيـه حقائق ما يظهر » يحاول أن يبرر بعض تصرفات الحاكم . وفى السادسة وهى « السيرة المستقيمة » يحدثنا عن آدم وأصل الخليقة ويزعم أن القرامطة هم الموحدون ؛ ثم يحدثنا عن تعاقب الشرائع ويزعم أن الاسلام قام بالعنف والسيف ، وأن الشريعة الاسلامية اختتمت بمحمد بن اسماعيل ، وأن آخر خلفاء اسماعيل هو عبد الله المهدى (مؤسس الدولة الفاطمية) ، وأن القائم هو الحاكم[٢] وفى السابعة الموسومة « بكشف الحقائق » يلجأ الداعى إلى العبارات الرمزية ويقول : « والآن فقد دارت الأدوار ، وظهر ما كان مخفياً من مذهب الأبرار ، وبان للعالمين ما جعلوه تحت الجدار ، وعادت الدائرة إلى نقطة البيكار ، فألفت هذا الكتاب ، بتأييد مولانا البار ، الحاكم القهار ، العلى الجبار ، سبحانه وتعالى عن مقالات الكفار ، وسميته كشف الحقائق .. » ولعله يريد بهـذا الاسم ــ كشف الحقائق ــ عنوان الكتاب كله ، لا الرسـالة الموسومة بهذا الاسم فقط ، فاذا صح ذلك فنكون أيضاً قد عرفنا اسم كتاب حمزة . وفى هذه الرسالة يزعم الداعى أن الآله بشر يأكل ويشرب ، وليس كما زعموا من التجرد عن الصفات البشرية ، ويقـدم لنا شرحاً فلسفياً للعقل والنفس . وفى الرسالة الثامنة والأخيرة ، وعنوانها « سبب الأسباب » يتخذ الداعى صفة الهادى والمعلم الأكبر بتفويض مولاه

« للبحث بقية »

محمد عبد الله عنان
المحامى

(١) ص ٢٩ و ٣٠ و ٣٤
(٢) المخطوط ص ٥٣ و ٥٤
(٣) ص ٧٣
(٤) ص ٧٥

(١) ص ٨٦ (٢) ص ٢٠٠ و ٢٠٢ و ٢٠٨

نظام التربية والتعليم بانجلترا [1]

والعناية بالنظر فى أخلاق الشعب وتقاليده

للأستاذ محمد عطية الابراشى

المفتش بوزارة المعارف

يجب أن يعنى نظام التربية بالنظر فى أخلاق الشعب وتقاليده، وفى الصفات السائدة بين الأمة، وألا يكون ضد العادات القومية. كل هذه الأمور قد لوحظت فى التعليم بانجلترا؛ فان الصفات والأخلاق التى تعرف بها بين الأجناس البشرية معروفة منذ أجيال، متأصلة فيها كل التأصل. يقول «بيتر سانديفرد»: «الرجل الانكليزى مولع بالمنافسة، يحب من صميم فؤاده الرحلات والسياحات. ولا يستطيع احد الاستقرار فى انجلترا إلا من كان يميل الى المنافسة، وإن هذا الميل الى حب التنافس لا يظهر للناظر العادى، لأنه مغطى بطبقة كثيفة من الهدوء العقلى.» والرجل الانجليزى يمقت النظريات والتفكير فى النظريات، ويحب أن يقبض على الأمور العملية فى الحياة، ويحلها وهو سائر فى عمله. ويقول «بيتر ساند يفرد» أيضاً: «إن الرجل الانكليزى يُرى هادئاً، وهو فى حاجة الى قوة الخيال، ومن الصعب أن تؤثر فيه، فهو كالفحم الحجرى الصلب يتقد ببطء، ولكن حينما يتقد يحترق الى النهاية.» ولدى الرجل الانجليزى قوة كبيرة على كتمان شعوره، ويمكنه أن يمتلك نفسه، وهو شديد المحافظة على القديم، يحب الحرية الشخصية فوق كل شىء، ولقد قاتل فى سبيل تلك الحرية أكثر من ألف سنة؛ ويقول «سانديفرد» فى موضع آخر: «الرجل الانجليزى هادىء من الجهة العقلية، ولديه حب عميق للحرية، ولقد كانت هاتان الصفتان سبباً فى اتخاذه سياسة البطء، لا فى السياسة فحسب، بل فى التعليم كذلك.» وهو منعزل بطبيعته، يحب العزلة والوحدة، لا يحادثك إلا إذا تعارف بك. وقد يكون هذا الانعزال ناشئاً عن الحياء والخجل، وإذا حادثك فلا تخرج محادثته فى الغالب عن الجو، والجو لحسن الحظ كثير التغير والانقلاب بانجلترا، فمن اعتدال فى الطقس الى ضباب أو مطر، أو برودة، أو عاصفة أو رعد وبرق. وإذا زالت الكلفة وذهب الخجل تحادث معك فى أى موضوع كالخيالة والتمثيل، والألعاب الرياضية، والموضوعات الأدبية والاجتماعية.... يتجنب الأمور الشخصية؛ فلا يسألك عن مقدار ما يمنحك أبوك فى الشهر، ولا عن مقدار ما تنفقه أو تدفعه للسكنى أسبوعياً – كما يسأل الفضوليون حينما يرونك أو يعرفونك أول مرة. ويميل الانجليزى دائماً الى التحفظ فى الجواب، فلا يجيب إجابة الجازم المتحقق، ولكنه يجعل للشك دخلاً فى كل ما يقوله، ويجيب دائماً بكلمة: «أظن، أو ربما»، بعكس الرجل الفرنسى فانه يميل كثيراً الى الجزم واليقين

والانجليز معروفون بحبهم للمحافظة على القديم. وفى انجلترا تندر العجلة فى تنفيذ نظرية من النظريات، أو مشروع من المشروعات فى التربية والتعليم؛ فبينما تحاول الولايات المتحدة بأمريكا تجربة طائفة كبيرة من طرق التعليم والنظريات الحديثة – وقد لا توافق على شىء منها بعد التجربة وعدم الاستحسان – نجد انجلترا فى هذه الحال مثلاً فى دور المناقشة والمناظرة فى طريقة واحدة من هذه الطرق؛ لأن انجلترا تخاف الخسارة وضياع الوقت، أما الولايات المتحدة فلا تبالى بما تفقده فى سبيل البحث والتجربة، ولذا نجدها اليوم تقود العالم فى العلم والاختراع والصناعة، ولقد ساعدها غناها على هذا التقدم والأقدام، فالمحافظة على القديم فى انجلترا لها فوائد، ولكن يجب ألا ننسى أن لها أيضاً كثيراً من المضار، فانجلترا تميل الى الوقوف عند حدما، وهى بطيئة فى الاصلاح؛ لأنها لا تستفيد فى الحال مما يقدمه لها المفكرون، وما يظهره المصلحون من أبنائها، ولا تشجع البحاثين والمخترعين تشجيع الولايات المتحدة لهم. وإن ولع انجلترا بالمحافظة على ما لديها يظهر جلياً فى القوانين المختلفة للتربية التى وافق عليها مجلس النواب الانجليزى؛ فلا تجد مطلقاً حذف قانون من القوانين برمته واستبداله بقانون آخر، بل تجد أن كل قانون هو تعديل للقانون السابق، للتوفيق بينه وبين الرأى الجديد الذى يراد إدخاله، ولا يشك أحد فى أن التعليم بانجلترا يستفيد من أن قوانينها فى التربية ثابتة.

ومع ذلك قد حدث تغيير فى التعليم بانجلترا، فمنذ سنة ١٩٠٠ نرى المحافظة على القديم أقل منها فى الزمن السابق، وفى الحق إن التغيرات الحديثة بانجلترا كثيرة وظاهرة لمن عرفها من قبل ورآها اليوم. ولا يشعر من الانجليز بالفائدة الكبيرة من هذا التغيير إلا قليل منهم، وكل ما تعرفه الأكثرية هو أن هناك

(١) من كتاب «نظام التعليم فى انجلترا» تحت الطبع

شيئاً يجرى فى عالم التربية ، وأن الأمور تتغير بسرعة . وهم يشعرون بالحيرة فى الابتداء وهم سكوت لايتكلمون . ولا ننكر أن النزاع بين المحافظين والمجددين دائم لاينقطع ، ولو أنه نزاع صامت

ويظهر الميل الفطرى لحرية الفكر ، واستقلال الرأى فى أحوال كثيرة فى التعليم بانجلترا . وإن قوانين التربيــة مفتوحة للتغيير البطىء ، فحينما تظهر التجارب صواب الفكرة الجديدة ، ويرى معظم الناس فائدتها ، يتغلب الانجليز على كراهتهم لها ؛ فالحرية الشخصية تخضع دائماً للمجتمع ، حباً فى المصلحة العامة ، فمثلاً كان الذهاب الى المدرسة اختيارياً يذهب اليها من يشاء من التلاميذ ، لكن لما تبين أن من المحال تعميم التعليم إذا ظل اختيارياً ، غير هذا النظام وجعل إجبارياً . وكان التفتيش الطبى على المدارس والتلاميذ اختيارياً ، ثم غير وجعل إلزامياً ، وكان إعداد المدرسين اختيارياً أيضاً ، ثم ظهر أن المدرس لايستطيع أن يقوم بمهنته كما ينبغى إلا إذا نال قسطاً من التربية وعرف طرق تدريس المواد ، فجعل إعداد المدرسين إجبارياً ، وعد من الواجبات لرقى التعليم . وهناك عشرات الأمثلة لأمور كانت اختيارية بانجلترا ، ثم أصبحت إجبارية يطالب بها القانون

وإن انجلترا – وإن كانت أمة عملية لاتدين بالنظريات – لاتمتنع من أن تعمل بما يمكن تنفيذه منها . ولا ينكر أحد أن النظرية التى لا يمكن تنفيذها لافائدة منها ، ولا خير فى العلم إذا لم يصحبه العمل . لذا كانت طريقة التعليم فى انجلترا طريقة عملية ، تتفق هى والأمور العملية التى تحتاج اليها ، تتفق مع حاجات الشعب وحياته . ولا يمكن أن تفهم هذه الطريقة منفردة عن التاريخ القومى لهذه الأمة ، لأنها نتيجة الخلق القومى والحالة الشعبية .

والمهم لدى الانكليز الوصول الى العمل بأى طريقة كانت من غير عناء كبير أو بحث طويل فى النظريات ، وتاريخ التعليم الانجليزى مملوء بالأمثلة الدالة على حب العمل ، وعدم الاكتراث للنظريات . فمدارس انجلترا إذن مدارس عملية ذات قوة كبيرة ، وتأثير عظيم فى تهذيب الأخلاق وتقويمها ، وإعداد رجال مخلصين عمليين يثقون بأنفسهم ، ويشعرون بما يجب عليهم لغيرهم ، ولا يفرون من تحمل مسئولية أى عمل يقومون به . هى مدارس تربى فى كل طفل الثقة بالنفس ، فيقول لك دائماً : « سأحاول » إذا سألته : هل يستطيع أن يقوم بعمل من الأعمال ؟

محمد عطية الابراشى

أين كانوا يوم كنا ؟ . . .

للأستاذ كرم ملحم كرم

صاحب مجلة « العاصفة » البيروتية

لا نجد حولنا غير المعجبين بالأدب الأفرنجى . ومن حق هؤلاء أن يعجبوا بهذا الأدب الكثير الألوان ، الجديد ، الطرى ، السائر والحضارة فى طريق واحد لا تبتعد عنه ولا يبتعد عنها . من حقهم أن يعجبوا بأدب يوفر لهم ما يحتاجون اليه من غذاء روحى أعده لهم طهاة عرفوا ميولهم فسايروها ، ونفحوها بما تستطيب من علم ، وبما ترتاح له من ابتكار مستساغ تهضمه المعد والعقول . فالأدب الأفرنجى فى القرن العشرين ينضح بعصير يجد فيه كل طالب ما تشتهيه نفسه . فليس له إلا أن يختار . فان أمامه من مختلف الأطعمة ، بل أمامه الأطعمة على اطلاقها . فاذا حن إلى التاريخ وجد التاريخ ، وإذا حن الى الشعر لمس من هذه البضاعة ما يروم ، وإذا شغف بالرواية وقع منها على ألوان وألوان كبيض العيد ، من أحمر وأخضر وأصفر وبنفسجى وبرتقالى

فما عليه ليدرك مبتغاه إلا أن يحرك شفتيه . وهذا الخصب فى الأدب الأفرنجى يعود إلى أمرين : الأول أن الغرب اليوم فى عز ومنعة ، فهو المسيطر الحاكم المستبد . والآخر أن فيه شعباً يقرأ ويقدر مؤلفيه . فاذا أجهد الكاتب ذهنه وكد قريحته فلن يضيع وقته فى العبث ، فلابد له أن يستفيد ، وأن يضمن لنفسه الغذاء والقوت

وسر نجاح الأدب فى نجاح الدولة التى تحميه ، فمن المحال أن ينشط أدب ويفك من عقاله ويزدهر وينمو إن لم تكن هناك دولة يعتمد عليها ويستند اليها . فالأدب العاطل من سلطة تعضده وتؤيده أشبه بالرجل التائه الشريد ، بل أشبه باليتيم ، يقضى العمر وحيداً ينبذه الكون ، وينفر منه الناس ، فيعيش فى اكداد واضطراب حتى تدق ساعته الأخيرة فيلفظ الروح

ثم إن هذا الأدب بحاجة إلى من يغذيه بالمال ليعيش ، فالأديب ككل ذى صناعة إن لم تمده بما يوفر له طعامه ، يعجز

عن أن يمدك ببنات صدره وعقله . فهو يحتاج إلى الغذاء : إما بأن يرفده الملوك وأصحاب الغنى والجاه والمراتب السنية ، وإما بأن يقبل الشعب على مؤلفاته يؤدى عنها ما تساوى . وهو إن لم يوفر غذاءه المادى ، فكيف يتوفر على صوغ جواهره فى عقد نضيد نظيم تقرّ به العيون وتبتهج القلوب ؟

فالأدب الأفرنجى إذاً مدين فى خصبه الى الحظ ، فالحظ يخدمه فى دول تحميه وتدفعه فى طريق الحياة ، ويخدمه فى شعب يقبل عليه ويشتريه . وأى أدب لا يثمر مادام الأهتمام به متوالياً بلا انقطاع ؟ فالصخر إذا عكف عليه من يفتته أنبت أروع الأزهار ، وأينعت فيه أطيب الثمار !

وهـذا هو الأدب الفرنسى كم انقضت عليه أزمان فما جاد بالسمين ؟ . . . لقد ظل عصوراً طويلة ضائعاً ، غامض اللون والوجه ، لا يستقر على حال ولا يقوم له كيان ، مع أن فرنسا عرفت أياماً نضرة فى عهـد « كلوفيس » و « شارلمان » . وانتقلت اليها روائع اللغة اللاتينية ، وعكف الرهبان فى أديارها على تدريس الأدب اللاتيني لنشر تعاليم الدين المسيحى . إلا أن هـذه الهمة الشماء لم تنهض بالأدب الفرنسى المضطرب اللهجة واللسان . فظل ضائعاً مائعاً نغلاً لا أب له ولا أم ، لا جامعة تربطه ولا قوة يعول عليها فتوحده وتجمع شتيته . حتى جاءه «ماليرب» فاجتهد فى تكوينه وفى بناء قواعده . ولاح فى الظلماء بصيص نور خطر للكردينال « ريشلو » أن يحيى هذا الوليد . فأنشأ المجمع العلمى الفرنسى ، وقامت بانشاء هذا المجمع الدعامة الكبرى فى بنيان أدب فرنسا

ومن هو « ريشيليو » ؟ . . .

هذا كاهن عالى الرتبة ساد فرنسا ثمانية عشر عاماً

فهو أدهى من قام فى البلد الفرنسى من رجال السياسة على إطلاقهم ، ولا نستثنى حتى « تاليران » وزير نابليون الأول . فان فرنسا مدينة بعظمتها لهذا الكاهن الذى لم يكن فى سياسته كاهناً . فتلاعب بتلك الدولة الكبرى كما يتلاعب بسبحته . فهدم وبنى ، وأمات وأحيا وظلم . وشعر بنفور الشعب منه . وأدرك أنه بحاجة إلى ما يرفع من شأنه ، فالتفت إلى الأدباء يصلح من شأنهم ويعطف عليهم . فما جهل أن للأدباء ألسنةً طوالاً يقتلون بها من يشاؤون ، ويقوضون أى ركن راموا تقويضه . ما جهل أن الأدب خالد فى بطن التاريخ خلود الممالك ، وأن الأدباء أخدان الملوك فى البقاء على ممر الأعوام والدهور . وقد يموت الملك ويطوى ، ويمحى اسمه حتى من صدور الكتب ولا يموت الأديب

ما جهل كل هذا ريشليو صاحب اليد الحديدية ، وقاتل الملكة «مارى دى ميدسيس» هماً ونكداً ، والمسيطر على الملك لويس الثالث عشر . فدعا إلى إنشاء ذلك المجمع الأدبى ، ولا يزال المجمع حتى اليوم ينتسب اليـه أربعون أديباً ومؤلفاً وعظيماً ، وإنه لساهر على اللغة الفرنسية والأدب الفرنسى سهر الأم على بنيها ، فلا يغفل عنهما لحظة لئلا يسلكا طريقاً غير قويم

وبعـد « ريشليو » أطل « الملك الشمس » لويس الرابع عشر ، فزاد فى توطيد دعائم الأدب الفرنسى . وكان حيال أدباء بني قومه أشبه بملوك العرب حيال أدباء العرب ، فجاء بكبار الأدباء يفسح لهم صـدر بلاطه ، ويخصص لهم المرتبات ، ويجزل لهم العطاء ، ويدعوهم إلى التأليف . وهو نفسه كان يحاول نظم الشعر ، فلمعت فى عهده أدمغة أدبية لا تزال حتى اليوم تفيض إشراقاً . وستظل فى هـذا الفيضان حتى الأبد . فان ما جاء به أدباء فرنسا فى القرن السابع عشر يكاد يكون خير ما أنتجته قرائحهم من سام رفيع وطيد نفيس ، فجاروا الأدب اليونانى والأدب اللاتيني فى أروع ماعندهما من آثار . واقتبسوا منهما الفن التمثيلى والأمثال الحكيمة فى روايات وجيزة على ألسنة الحيوانات . واقتبسوا منهما الفلسفة . ولم يكن للأدب الفرنسى أى ميزة يبهر بها العيون ، فأمسى فى القرن السابع عشر منارة تهتدى بها أوربا جمعاء ، بل يهتدى بها العالم

فالروح الأدبية استيقظت منذ ذلك الحين فى فرنسا ، ومشت فى طريق آمنة مرفوعة الرأس متوجة بأكاليل الغار ، ولما تزل مسرعة فى سيرها الوثاب . أجل ، لقد كان لهـا ومضات فى القرن السادس عشر ، إلا أنهـا أشبه بانتفاض الجنين فى بطن أمه ، يختلج اختلاجاً يدل على أن الحياة أخذت تدب فيه

وليس من حق الفرنسيين أن يزعموا أن أدبهم يرتقى إلى أبعد من القرن السادس عشر . فان يكن لهم بعض فلتات أدبية ترجع إلى ما قبـل ذلك العهد فانها لا تستحق العناية . ثم هى

موضوعة فى لغات متباينة خاضعة للهجات العامية المتداولة يومذاك فى شمالى فرنسا وفى صميمها ، وليس هذا الأدب بالأدب المكتوبة له الحياة . فهو من النفايات التى تطرح جانباً ويضطر التاريخ الأدبى إلى اثباتها للاشارة إلى روح الأدب فى عصرها ليس غير

وماهى روح الأدب فى فرنسا قبل القرن السادس عشر ؟ . . روح فروسية وبطولة تفيض بالحماسة وتنسج الملاحم على طراز ملحمة عنترة فى اللغة العربية . إلا أنها ملاحم من شعر لا روعة فيه ولا وحدة ولا قافية ، فيكفى أن يكون موزوناً

والعصور التى سبقت العصر السادس عشر فى فرنسا لم تكن بالعصور اللامعة فى حضارتها . فما هناك غير حروب وغزوات . فالقوم كانوا يعيشون على صهوات الخيل ، يبايعون يوماً هـذا الأمير وينتصرون يوماً لذاك ، والحروب كانت أبداً عندهم على لظى واضطرام . فما التفتوا الى الأدب مثلهم الى السيف . وهم إذا صاغوا بعض آثار أدبية فقد صاغوها لخـدمة السيف ورجال السيف

على أنهم ما تذوقوا طعم الأدب الصحيح حتى باتوا يجدون فيه ضرورة من الضرورات لا غنى لهم عنها فى حياتهم العامة والخاصة . فأصبح الأدب لديهم أشبه بالقوت . وتكاثر رجال الأدب فيهم . وبرز القرن الثامن عشر حافلاً برجال الفكر من أمثال « ڤولتير » و « جان جاك روسو » وطغى الأدب على السيف واستولى على الأفكار والعقول . ولفت الأنظار الى مظالم الملوك . فخرج الشعب من غفلته وأعد الطريق الى ثورة ١٧٨٩ ، وهى الثورة الفرنسية الكبرى . وهذه الثورة مع اخمادها روح الأدب زمناً ، أحيت فى الصـدور أدباً جديداً شق طريقه « شاتوبريان » ولحقه فيـه « لامرتين » و « ألفرد ده موسه » و « ڤيكتور هوجو »

فالشعر فى فرنسا لم يعرف مجـده الأسمى فى عهد غير ذلك العهد ، وتوالت الأيام فما ظهر بين الفرنسيين شاعر يستوى ومن سطع فى القرن التاسع عشر من شعراء . نعم ، إن القرن العشرين لا يزال فى مرحلتـه الأولى . وليس من العجيب أن يتـلألأ فيه نجم يكسف ما أشرق فى سماء الأدب الفرنسى من كواكب ونجوم . على أن هذا النجم لايزال فى برجه تسد دونه النوافذ والأبواب

ووقوف الأرحام عن اتحـاف فرنسا بهذا الشاعر المتفوق لا يدل على أن الأدب الفرنسى فى جمود . فالأدب الفرنسى اليوم كثير الرواج ، فائق الانتاج ، يهدى الى العالم الغث والسمين ، المتين والركيك ، العالى والسخيف ، ككل أدب فى غليان ، ككل بضاعة تجد أسواقاً تقبل عليها وتلتهمها . ولا ريب فى أن هذه البضاعة تنفد وتذوب . ولا يبقى منها على توالى الأيام غير الجيد الجيد . والجيد دون القليل . فليس كل ما يأتينا به أى أدب من الآداب بالخالد الباقى الرفيع

والفضل فى رواج الأدب الفرنسى أن له دولة تحميه . فهو لم ينهض إلا يوم قامت فى فرنسا دولة موحدة . وسيظل حياً ما بقيت هذه الدولة تنشر حضارتها فى العالمين ، فالأدب لا تقوم له قائمة إذا لم يكن إلى جانبه سلطان يذود عنه ويدفعه فى طريق النهوض ، شأن الأدب الهندى ، والأدب الصينى ، والأدب الفارسى ، والأدب العـبرانى ، والأدب اليونانى ، والأدب اللاتينى ، والأدب العربى

وأين كان الأدب الفرنسى يوم كان الأدب العربى فى الوجود ؟
كان نكرة من النكرات
كان لا شئ
فالأيام لم تـكد تلقى بذوره فى الأرض
وكم استفاد الأدب الفرنسى من الأدب العربى !
فان مؤرخيه أنفسهم يعترفون بفضل الأدب العربى عليه

فلولا الأدب العربى لطال جهل الفرنسيين فلسفة أرسطو . فقد نقلوا فلسفة الحكيم اليونانى إلى لغتهم باعتمادهم اللغة العربية ، وكانوا يهتمون بهذه اللغة ويطلعون على دقائقها ويدرسونها يوم كان العرب يحتلون الأندلس . وكم استغلوا من روائعها وكم اقتبسوا منها ! فان شعرهم لم يعرف الألوان قبل وقوفهم على الشعر العربى . وبعض المؤرخين يقول إن ذلك الشعر اعتمد القوافى يوم درس الفرنسيون الآداب العربيـة واطلعوا على منظوم شعراء العرب

فالأدب الفرنسى لم يكن له وجود يوم كان الأدب العربى ريان وضاء ، ينشر لواءه من قلب فرنسا وإيطاليا إلى خليج العجم وإلى ما هو أبعـد من خليج العجم . أما احتل العرب بلاد الهند ؟ أما نشروا فيها حضارتهم ؟ . . أما حملوا اليها القرآن

ولغة القرآن ؟ . . أما جاء زمن سادت فيه لغة القرآن العالم فاحتلت ثلاث قارات : هي آسيا وأفريقيا وأوربا ؟ . . .

وأين كان شعراء فرنسا يوم عرفت الجاهلية أصحاب المعلقات ؟.

وأين كان فيكتور هوجو يوم نشأ المتنبي ؟

وأين كان « فولتير » يوم عرفت الآداب العربية أبا العلاء المعري ؟ . . .

لقد سبقناهم بألف ومئة سنة . هذا إذا خضعنا لقول القائلين إن الأدب العربي عرف الحياة في القرن الخامس للميلاد . مع أن الأدب العربي انبثق قبل هذا الزمن بمئات السنين . فمن المحال أن يبلغ أي أدب من الآداب الكمال الفني في وثبة واحدة . فلا بد له من عصور ريثما ينضج . إن هو إلا أشبه بالطبخة . وهذه الطبخة لاتكفيها سنة ولا عشر سنوات . فهي بحاجة إلى مئة سنة على الأقل لتصلح للمضغ والازدراد . ونحن عرفنا أول شعر عربي اتصل بنا مستوفى الشروط كامل العدة . إذاً فلا بد أن تكون الأجيال التي بدأت قرض هذا الشعر قد تولت عجنه قبل اختماره بمئات السنين

ومن المؤسف ألا يكون للأدب العربي تاريخ صحيح نرجع إليه . فالكتابة كانت مجهولة لدى عرب الجاهلية وهم أبناء البادية والقفار . وهم البعيدون عن كل حضارة . فما وصلت إلينا أشعارهم التي قرضوها في بدء عهدهم بالشعر . فالحفاظ والرواة جاؤونا عنهم بكل غريب . فحدثونا عن العرب البائدة أحاديث لا يقرها عقل ولا صواب . ونحلوا الشعر العربي حتى جدنا آدم ، وقالوا إن سفر أيوب كتب باللغة العربية . وإن موسى نقله منه إلى العبرانية . وتفننوا فيما اختلقوا من روايات عن عاد وثمود وطسم وجديس . فاذا آمنا وصدقنا هذه الروايات كان لنا أن نقول إن اللغة العربية حفلت بالأدب الراقي قبل العصر المسيحي ، وإنها من اللغات الأولى التي تخاطب بها الناس . على أننا نكتفي منها بأن تكون آدابها ارتقت إلى المستوى العالي في القرن الخامس للميلاد ، يوم قامت فيها الممالك تحالف الفرس من جانب والروم من جانب آخر . فالآداب العربية أثمرت في ذلك الحين ثماراً طيبة لا يزال العطر منها يفوح ، ولا تزال مثالاً يحتذى

وإننا لنرى في امرىء القيس على ما في شعره من الكلام الخشن — مما لم تكن تنبو عنه الآذان في ذلك العصر — سيداً من سادات الأدب لم يعرف أمثاله الأدب الفرنسي في غير القرن السابع عشر . وامرؤ القيس عرفه الأدب العربي في القرن السادس . وهذا أصدق دليل على أننا سبقنا القوم بألف ومائة عام

وكانت الآداب العربية وافرة الجنى في عهدها الأول . وظهر الأسلام فزادها ثروة على ثروة . وخصوصاً في كتابه القرآن . فالقرآن أفضل ما تحفل به اللغة العربية ، إذا اكتفينا بأن ننظر اليه ككتاب يحفظ للغة العربية متانتها وبلاغتها ، ويدعو الخاضعين لتعاليمه الى قراءته وترديد آياته . فهو وحده يقي اللغة الموت ، ويرد عنها البلاء ، ويصونها من الضياع . ولولاه لاضمحلت اللغة العربية في عصر الأنحطاط وتلاشى كل أثر منها

ومال الخلفاء في صدر الأسلام الى الشعراء فزادوا في إحياء لغة العرب ، وهم كانوا في حاجة الى الشعراء . لقد كانوا في حاجة الى شعرهم ينالون به من خصومهم ويهدمون من أمجادهم ، تشبهاً بالرسول في موقفه من شاعره حسان . ولم يكن للصحف وجود في ذلك الحين . فبحث الخلفاء — وفي طليعتهم معاوية — عمن يقوم بالطعن على خصومه في كلام يردده الحداة ويتناقله الركبان ، فلم يجد أمامه غير الشعراء وسادة القريض . ومما زاد في حاجته اليهم أضطراره الى الكفاح والنضال بعد انتزاعه الخلافة من علي بن أبي طالب . فأصبح للشعر ولقائليه شأن . خصوصاً وقد تعددت في ذلك الحين الأحزاب السياسية والدينية ، وأمسى كل سيد قوم بحاجة الى من يطنب في الثناء عليه ويغالي . ولم يكن ثمة غير الشعراء يصوغون من المديح عقوداً ويتقاضون عنها نقوداً . فكثر الأقبال عليهم وأكثروا هم من التقلب في مدح هذا يوماً وذاك يوماً آخر استدراراً لرفده وعطائه . وراجت بضاعة الشعر فتكاثر الشعراء ، وأورقت رياض الأدب ، ومعظم الذين حفلت بهم من المتكسبين . غير أن هؤلاء المتكسبين جادوا بأحسن ما عندهم رغبة منهم في غنم أوفر مبلغ مستطاع

وأكثر عصور الأدب ازدهاراً في اللغة العربية هو العصر العباسي ، بل الأعصر العباسية على اطلاقها . فقد بلغ الأدب العربي في ذلك الحين القمة ، وما اكتفى رجاله بالشعر يصوغونه على الفطرة والسليقة ، بل تعمقوا في الأدب يدرسونه وينتقدونه ويؤلفون فيه الكتب والأسفار ، فولجوا الأبواب كلها : من نظم ونثر ، من نقد ورواية ، من علم وتاريخ ، وامتزجوا بمن حولهم من

الأمم ، فوقفوا على الأدب الفارسي والأدب اليوناني ، وأضافوا الى كنوز الأدب العربي كنزاً آخر ، وهو كنز لا يقل في شيء عما تفاخر به اللغة الفرنسية من نفائس وروائع ، فما نفحها به أدباؤها في عصر « الملك الشمس » والقرن الثامن عشر والتاسع عشر لا نزيد قدره الفني على ماطفحت به اللغة العربية في الأعصر العباسية ، وكل ما للأدب الفرنسي من ميزة أنه أكثر تنظيماً وتبويباً ، وأحكم وحدة وارتباطاً ، فالأدب العربي يكاد يكون خالياً من الوحدة والارتباط ، فلا صلة بين أجزائه وموضوعاته ، ولا لحمة في مؤلفاته . فهي متناثرة كحجارة البناء المطروحة على الطريق تحتاج الى البنائين ليرصفوا بعضها فوق بعض ويقيموا منها داراً عامرة

أما الأنتاج فلا نبالغ إذا قلنا إنه يوشك أن يكون والانتاج الفرنسي في مستوى واحد ، وما على من يرتاب فيما نقول إلا أن يطلع على ما أبقاه العهد العباسي من جليل نفيس . فالخزائن تكاد تضيق بروائع تلك الأعصر الزاهرة

والفضل فضل الدولة القائمة ، بل الدول التي قامت في تلك الأعصر . ولو ظلت في مناعتها لكان الأدب العربي اليوم في رقي الأدب الغربي إن لم يكن أرقى منه . ولكن سقوط بغداد في أيدي أعداء العرب طمن الأدب العربي في صميمه . وكان عهد الانحطاط . واستمر هذا الانحطاط طويلاً . استمر ستمائة عام . وفي هذه الأعوام الستمائة جمدت اللغة العربية جموداً قاتلاً . وكادت أركانها تنهار لولا القرآن وبعض الهائمين بها . وفيما هي ترقد رقادها الفاجع تحركت الآداب الأخرى وبنت لها قصوراً منيعة ننظر اليها اليوم معجبين ، ونكاد نتناسى في ظلالها أن لنا أدباً حياً لا يقل شأناً عن سائر الآداب الحية ، ولكننا وقفنا بينما مشى سوانا ، وبينا نرى أننا عاجزون عن اللحاق به . وهذا اليأس زاد في ضعفنا وخمولنا

وقد نظل ضعفاء خاملين لا تقوم لنا قائمة إلا يوم تقوم دولة عربية حرة يتفيأ أديبنا ظلال قبابها العالية . فاذا كتب أو أنشأ علم أن الأيدي تمتد من كل جانب للوقوف على ما كتب أو أنشأ ، وما دامت هذه الدولة غير موجودة أو واهية القوى ، فالأدب العربي يعيش على سواعد عشاقه . وسواعد عشاقه لا تكفي للنهوض به . فكل ما تفعل أنها ترد عنه عوادي الزمن ، وتنقذه من الفناء ريثما يأتيه يوم يرفع فيه رأسه ، ويغزو من يغزوه ، ويبطش بمن يكتسحه

فالأدب يلمع عندما تلمع الدولة التي يحمل لواءها

وليس الأدب العربي بالشاذ عن القاعدة مع كل ما في القواعد من شواذ ! . . .

(بيروت) كرم ملحم كرم

ورطـــة

للأستاذ ابراهيم عبد القادر المازني

خرجت من بيتي في صباح يوم، ومعي – في جيبي – ثلاثون قرشاً ليس إلا ... وقالت لي نفسي، وأنا أضع الطربوش على رأسي بيد، وأفتح الباب بيد:

«إنك ياهذا ذاهب الى عملك فعائد منه الى البيت لتتغدى، فما حاجتك الى أكثر من هذا القدر؟ اقنع به، فان امتلاء اليد يغري بالأنفاق، وكفك كالغربال – كثيرة الخروق، وواسعتها جدا – ولو رزقت مال قارون لأتيت عليه كله في بعض يوم، فانت والله أحق الناس بالحجر!»

فوقفت مغيظاً، فما يليق أن تصبحني نفسي بمثل هذا الكلام القبيح. وكيف بالله أؤدي عملي إذا كنت أسمع مثل هذا التأنيب على الريق؟ وقلت لأزجرها عن هذا السلوك المعيب:

«بدأنا؟ يا فتاح ياعليم! ألم أنهك عن هذا ألف مرة!»

فراحت تكابر وتقول: «وهل قلت إلا إنك مسرف؟»

فصحت بها من الضجر: «مسرف كيف، ياستي؟ وهل ما أكسب يكفيني حتى أعد مسرفاً؟»

قالت: «إنه لايكفيك لأنك مسرف ... مخروق الكف، وفي دون ما تكسب فوق الكفاية»

قلت: «كلام فارغ ... ولعب بالألفاظ ... هـذه يدي ليس فيها خرق واحد، وإني لأحب المال حباً جماً، وأحاول أن أخزنه وأكنزه، ولكن ماذا أصنع؟ كلما دخلت البيت قالوا هات ... هات ... ولست أسمع وأنا في البيت إلا قولهم «هات... هات!» لا أحد يقول «خذ!» كلا... هات صابوناً ... هات بناً ... هات أحذية وطرابيش ... كأني مصلحة تموين ... حتى وأنا نائم أسمع هاتفاً يقول لي: «هات» فأستيقظ مذعوراً ... وإذا لم أذهب الى البيت – أعني إذا فررت منه – فلا مفر من الانفاق في حيثما أكون ... لا أحد يقبل أن يعطيني شيئاً بالصلاة على النبي .... كلا .... لم تبق في الدنيا مروءة ولا كرم ولا تقوى ولا .....»

وأمسكت، فقد رأيت أحد الجيران يرقى في السلم، فخفت إذا سمعني أتكلم أن يحسبني مجنوناً، ولم أر أحداً غيري يحادث نفسه، فيظهر أنهم لانفوس لهم.. أعني أن نفوسهم لاتتعبهم ولايسرها التنغيص عليهم

وجاء الظهر، وزارني صديق عزيز طال غيابه عني، فقلت له وأنا أنهض معه:

«تعال نتغدى»

قال: «أين؟»

قلت: «أين؟ في البيت عندنا!»

قال: «بيت؟ لا لا لا ... تعال الى المطعم»

قلت: «مطعم؟ ياخبر أسود! لا ياسيدي! لا آكل في مطعم ولو شنقوني»

قال: «كيف تقول؟ لماذا تتكلم بهذه اللهجة؟»

قلت: «يا أخي بالله عليك دع المطاعم فان آكالها لاهنيئة ولامريئة، وتعال معي الى البيت»

وكنت وأنا أدعوه الى ذلك أرجو أن يرضى، وأخاف أن يأبى، وكيف لا أخشى وكل مامعي ثلاثون قرشاً لاتكفيني وحدي، فكيف به معي وهو ضيفي؟ وخطر لي أن أصارحه، ولكني استحييت، وقلت خير من ذلك أن أحتال حتى أقنعه وأجره معي، والتفت الى نفسي وقلت لها همساً:

«أرأيت؟ هل يعجبك هذا؟ هـــذه الفضيحة تسرك؟ مسرف أنا؟ هيه؟ أنا أبعثر المال باليمين والشمال؟ أنفقه بلا داع.. أرميه في التراب! بالله ما ذا كان يضيرني أو يضيرك لو أني خرجت بجنيه مثلاً بدلاً من هذه القروش القليلة التي لاتنفع؟»

وبدا لي أن خير ما أصنع في هذا الموقف هو أن أكون رجل عمل لا رجل كلام، فشددت ذراعه وقلت: «تعال!»

قال: «لماذا تجرني هكذا؟ الى أين؟»

قلت: «الى البيت... لا فائدة من الكلام تعال»

وشاء سوء الحظ أن تمر بنا في هذه اللحظة مركبة قديمة يجرها جوادان هزيلان معروقان، وأبى السائق اللعين إلا أن يتلكأ ويومىء الينا بالسوط الذي في يمينه أن نركب، ويقول:

«أجي يا بك؟»

فصحت: «لا لا لا لا ...» وأشرت اليه أن يذهب عنا، وأن يبعد جداً، وأن يسرع في ذلك

فقال صاحبي: «لا، يعني ماذا؟ إنتظر يا رجل.. تعال نركب فاني متعب»

قلت : « نركب ؟ »

قال : « نعم . . الى مطعم ال . . . تعال . . »

وشدنى ، وكان أقوى منى وأضخم ، فتعثرت وراءه وأنا أقول:

« يا أخى ، الترام أسرع من هذه الخيل المحنطة .

قال : « لا ، هذا أحسن »

وركبنا ، وضرب الرجل جواديه بالسوط ، فصحت به :

« يارجل ، حرام عليك ، انزل وجرها ! »

فابتسم الرجل ، وأقبل على اللجم يشدها ويرخيها ، ويخرج وهو يفعل ذلك أصواتاً ليس فى الحروف المعروفة ما يترجمها ، فلست أدرى أهى جءجء ، أم تء تء ؟ أم ماذا غير ذلك ؟ وأدرت وجهى الى صاحبى وقلت له :

« كيف تكتب هذا ؟ »

وقلدت صوت السائق ، فقال : « لاتكتب »

قلت : « ما أشد قصور اللغة إذن ، وأقل وفاءها بمطالب التعبير ! »

قال : « أى تعبير يا أخى ؟ مالك اليوم ؟ »

قلت : « ألست ترى الخيل تفهم عنه ؟ فهى لغة تفهمها ، ويجب أن نعرف كيف نكتبها ونرسم الرموز لنطقها ، وإلا كان هذا منا قصوراً »

قال : « طيب . . . طيب . . . »

فقلت محتداً : « كيف تقول طيب ؟ أيجوز أن تسع اللغة كل هذا الذى تسعه وتعجز عن أداء هذه الأصوات القليلة ؟ »

قال : « نعم يجوز . . »

قلت : « كيف تقول ؟ »

قال « نعم ، لأنها لغة مجمولة لأبناء آدم ، لا للخيل والحمير »

قلت « ولكن الخيل ليست هى التى تنطق بها ، بل هذا السائق الآدمى »

قال : « اسلكه مع الخيل والحمير ، وأرح نفسك وأرحنى »

فسكت ، فما بقى لى بعد هذا كلام ، وبلغنا المطعم الذى اختاره فترجلنا ، وأنقدت السائق خمسة قروش — قطعة واحدة ، خرجت من عينى ، لا بخلا ، فما بى بخل ، وإنى وحقكم لكريم مضياف ، وقد سممتم نفسى تنكر على إسرافى وتبذيرى ، وتزعمنى لذلك من إخوان الشياطين ، ومن كان لا يصدق فليجئنى بمال ، وليرَ كيف أنفقه له ، ولا أبقى لنفسى منه دانقاً !

وجلسنا إلى مائدة نظيفة ، وجاء الخادم بورقة كبيرة مطوية فيها ألوان الطعام — أعنى أسماءها — فنحيتها عنى بأصبعى ، وقلت له : « اقرأ واختر لنفسك »

قال : « وأنت ؟ »

قلت : « ابدأ بنفسك ياسيدى ، واتركنى لاختيارى بعد ذلك. »

فرفع الورقة أمام عينيه ، واضطجعت أنا ، وجعلت أنظر اليه ، وأجيل عينى فى جسمه الضخم الهائل الأنحاء ، وأسأل ماذا ترى يكفى هذه المعدة الكبيرة ويملأ هذه الكرش العظيمة ؟ وماذا يكون العمل إذا جاوز الأمر ما معى ؟

ورمى إلى الورقة وقال :

« الأختيار صعب ، فاطلب لى أنت ما تشاء ! »

فتناولت الورقة ، وأنا فرح مسرور ، وقلت فى سرى : « يامفرج الكروب يارب » وصرت أنظر فى الأثمان ، فأهمل ما ثمنه غالياً ، وأقصر الأختيار على كل معتدل الثمن أو ضئيله وقلت له :

« فى المطاعم يحسن اتقاء الدجاج والسمك ، مخافة أن تكون تلك مخنوقة وهذه قديمة ، ولست أرى هنا ما يصلح للأكل إلا المرق والأرز والخضر والفاكهة ، والجو اليوم حار جداً ، فيحسن الأجتزاء بالخفيف من الطعام ، والذى لا خوف من الغش فيه »

فخطف منى الورقة وهو يقول : « يا أخى مالك أنت ؟ أهى بطنى أم بطنك ؟ وصحتى أنا أم صحتك ؟ ومن قال لك إنى مترف يؤذيه الحر ويثقل فيه على معدته اللحم والطير والسمك ؟ »

قلت : « إنما أخاف عليك الموت ، فما زلت شابا ، وقد مات منذ أيام شاب من إخواننا من أكلة . . . »

فقاطعنى قائلا : « لا فائدة . . لا فائدة . . سآكل ما أريد على رغم أنفك »

فهززت رأسى وقلت : « شأنك ، إن همى كله ألا يصيبك ما أصاب ذلك الموظف الذى أكل سمكة متعفنة ... »

فصاح بى : « يا أخى اسكت . أى حديث هذا على الطعام ؟ »

قلت : « سكت ياسيدى ، ولكن لا أقل من أن تشاورنى لأنصح لك »

قال : « كلا . . . ولا هذه . . . وهل أنا مسئول منك؟ »

قلت : « إنك ضيفى وأنا مسئول عنك »

قال : « متنازل ... اسكت بقى »

فلولا أن كرمى طبع لا تطبع ، لسرنى هذا القول ، ولكنى أبيت أن أقبل « تنازله » ودعوت الخادم وقلت لصاحبى :

« مره بما تشاء . . . واطلب منه كل الألوان التى يقع عليها

اختيارك دفعة واحدة ، لنعدها لك ، من الآن ، ولا يعود يعتذر بأن هذا فرغ ، وهذا لم يبق منه شيء »

فوافق ، وكانت غايتي من هذا الاقتراح أن أعرف على وجه الدقة كم يكلفني إطعام ضيفي ، وهل يبقى في جيبي بعد ذلك شيء آكل به ، أم ينبغي أن أصوم إكراما له وإيثاراً ، فوجدت أن جملة الثمن بلغت تسعة عشر قرشاً ، فقلت في سري « أما والله إنه لشره نهم ! أما كان يستطيع أن يكتفي بلونين ؟ إنه لا يبقى لي بعد ذلك إلا ستة قروش تذهب منها اثنتان بجزية للخادم ، وقرش لابد منه لركوب الترام الى البيت ، فالباقي ثلاثة قروش ، ومايدريني أنه لايستمرئ نعمتي فيطلب قهوة أيضاً ، إذن هما قرشان اثنان لا أملك لنفسي غيرهما... حسن... فليكن كل طعامي تفاحة »

واستغرب صاحبي زهدي في صنوف الأطعمة ، واكتفائي بتفاحة ، فقلت له « يا أخي ألم أقل لك إني أكره أن آكل في مطعم ؟ ولقد نصحت لك فهل كنت تظنني عابثاً ، أم حسبتني من جماعة «يا أيها الرجل المعلم غيره » ؟ لا ياصاحبي . وقد تركتك لرأيك ، فاتركني لرأيي ! »

وكان يأكل وأنا أدخن وأتكلم ، ثم صفق فذعرت وسألته ماذا تريد ؟ »

قال « أليس عند هؤلاء القوم نبيذ جيد ؟ »

فقلت بسرعة « لا لا لا ... إنه خل — احذر »

قال « خل ... عسل ... لا بد لي من النبيذ »

فضربت كفاً بكف ، ولولا أن المكان غاص بالناس للطمت وجهي ، فنظر إليّ مستغرباً وسألني: « مالك ، لم أرك قط على مثل هذا الحال ؟ »

قلت : « يا أخي أتريد أن تفضحني »

قال : « أفضحك ؟ لماذا ؟ »

قلت : «تشرب النبيذ وأنت معي ؟ ماذا يقول الناس عني إذا رأوك ورأوني »

قال : « إيه ؟ أنت تخجل أن يراك الناس مع صاحب يشرب خمراً ؟ متى تغيرت عن عهدي ياصاحبي ؟ »

قلت : « اليوم ... »

قال : « اليوم ؟ فقط ؟ »

قلت : « على كل حال ، هذا لا يعنيك ... اطلب ما شئت إلا الخمر ... فلن أدفع ثمن قطرة »

فأطال التحديق في وجهي ، ثم قال :

« ليس هذا مربط الفرس .. ماهي الحكاية ؟ قل بصراحة ! »

فلم أعد أطيق الكتمان ، فقد كانت أمعائي تتقطع من الجوع ، وعيني تكاد تخرج من الغيظ ، وشق علي أن أراه يلتهم الطعام وأنا جالس أنظر وأتضور وأتحسر ، فانفجرت قائلاً :

« الحكاية يا أحمق يا غبي أن كل ما معي في هذه الساعة المنحوسة التي نجلس فيها أمامي خمسة وعشرون قرشاً ... وأنت تأكل كأنك ماذقت طعاماً منذ قرن كامل ، وتريد فوق ذلك أن تشرب نبيذاً ! شيء لطيف جداً ؟ ومن أين أجيء بثمن النبيذ الذي تفرغه في جوفك ؟ أرهن ثيابي ؟ ؟ أم أطعمك وأسقيك ، نسيئة ؟ لو كان في رأسك هذا ذرة من العقل والفهم ، أو في عينك نظر لفطنت إلى الحقيقة ولم تحوجني إلى الكلام ، ولكن كل جارحة فيك مَعِدة ... »

فقال بعد طول الأصغاء : « أهوذاك ؟ »

قلت بغيظ : « نعم هوذاك يا أيها الكرش ؟ »

فلم يجب بشيء وصفق فجاء الخادم فقال له :

« اطعم هذا الجوعان المسكين »

فقلت له : « قبحك الله ! ألا بد أن تفضحني ؟ »

قال : « ألا تستحق ذاك ؟ »

قلت : « ليس هذا وقت الجدل . . . هات دجاجة سمينة »

قال : « فان الدجاج مخنوق . . ! »

قلت : « لاتكن كزاً لئيماً . . . اذهب يا هذا وهات الدجاجة السمينة . . . والله لا بدأتُ إلا بها »

قال : « بدأت ؟ »

قلت : « نعم ، ثم بسمك »

قال : « إنه قديم ، متعفن »

قلت : « فليكن من عهد الفراعنة ، فان الجوع لا يرحم »

قال : « قاتلك الله . لقد كنتُ أشتهي الدجاج والسمك فصرفتني عنهما بتهويلك وخوفتني منهما »

قلت : « ما في بطني في بطنك ! »

ولما عدت إلى البيت قلت لنفسي وأنا أبدل ثيابي لأستريح « أظن أنه لا يسعك أن تتهميني بالاسراف في يومي هذا ، فقد عدت بأربعة وعشرين قرشاً من ثلاثين خرجت بها »

فابتسمت ، وهزت رأسها راضية ، فقلت :

« ولكنه موقف لا يحتمل إذا تكرر ، ولن أطاوعك بعد اليوم »

ابراهيم عبد القادر المازني

٢ ـ قصـــة المـكروب

كيف كشفه رجاله

ترجمة الدكتور احمد زكى

وكيل كلية العلوم

لوفن هوك Leeuwenhoek

أول غزاة المكروب

« بائع القماش الهولاندى الساذج الذى ضحك منه أهل بلده فكاتب الجمعية الملكية البريطانية وبها روبرت بويل. واسحاق نيوتن فاستمعت له وصفقت خمسين عاماً »

إن كثيراً من مكتشفات العلم الأساسية قد تظهر لرائيها اليوم بسيطة بالغة البساطة حتى ليعجب المتأمل فى العصر الحاضر من رجال العصور الغابرة كيف أنهم تحسسوا وتلمسوا آلاف السنين عن أشياء كانت منهم قاب قوسين أو أدنى من ذلك قربا . خذ المكروبات مثلاً . فعامة الشعوب تراها اليوم تتبختر على الشاشة البيضاء ، والكثير من ذوى العلم القليل رأوها تسبح وتمرح تحت عدسة المكرسكوب ، وطالب الطب البادىء يستطيع أن يريك جراثيم كثير من الأمراض ـ وإذن فما هذه العقبة الكأداء التى قامت دون رؤية المكروب لأول مرة !

أذكرْ أن « لوفن هوك » عندما وُلد لم يكن فى الدنيا مكرسكوبات ، ولكن عدسات يدٍ صغيرةٌ خشناء لا تكاد تكبّر الشىء ضعفين ، لو نظر بها هذا الهولاندى ثم نظر لملاه الشيب ولمّا يكتشف من الأحياء إلا دود الجبن فما فوقه حجماً . وإنما الذى غير وجه الأمر نحت هذا الرجل عدساتٍ جديدة ، ومثابرته على ذلك وإلحاحه فيه إلحاح معتوه ، ثم شغفُه بعد ذلك بنظرِ كل شىء ، والتجهير إلى كل شىء ، خصّ أو عمّ ، علا أو حقُر ، شرف أو سفَل ، دخل فى حدود الأدب أو خرج عنها ، فنال من ذلك خبرة وكسب مِراناً هيّأه لاستقبال ذلك اليوم الباغت الفاجئ الخالد ، يوم نظر من خلال عدسته ، تلك اللُّعبة الزجاجية بإطارها الذهبى ، إلى . . . قطرة ماء !

تلك النظرة . . . إلى تلك القطرة . . . بدأت تاريخاً مجيداً . كان « لوفن هوك » بحاثاً مخبولاً غريب الأطوار ، وإلا فما الذى حدا به إلى أن ينظر من بين ألوف الأشياء إلى قطرة ماء نزلت من السماء ؟ ! وما الذى عساه أن يرى فيها ! كانت مريم ابنته فى التاسعة عشرة من عمرها . وكانت كثيرة الحَدَب على أبيها المأفون ترعاه وتدفع عنه . والويل للجار السافل الغبى الذى يغريه سوء طالعه بالهزء من والدها على مسمع منها وكانت مريم ترقب خُطى أبيها ؛ فنى هذا اليوم المعهود رأته يتناول أنبوبة من الزجاج أحماها فى لهب حتى صارت حمراء ، ثم مطّها حتى كانت كالشعرة ، ثم كسّرها قطعاً صغيرة . ونظرت إليه وهو واسع العينين ذاهل اللبّ فاذا به يخرج إلى الجنينة فيُكبّ على إناء كان وضعه هناك ليقيس به مقدار المطر الهاطل ، ثم يغمس تلك الشعرات الزجاجية فيه ، ثم يعود بها الى مكتبه فيضعها تحت عدسته . ليت شعرى ما وراء هذا الأب المأفون العزيز الآن . إنه ينظر فى العدسة ويُجهد النظر حتى حولتْ عينه . إنه يتمتم بكلمات تتردد فى حلقه ولا تخرج الى شفتيه . ها هوذا قد زاد اضطرابه وعلا بغتة صوته ، وأخذ يصيح لابنته فى اهتياج ظاهر : « تعالى . تعالى . أسرعى ! أسرعى ! أرى أحياء فى الماء ، أحياء صغيرة . انها تسبح . إنها تدور وتلعب . إنها أصغر ألف مرة من الحيوانات التى تراها أعيننا المجرّدة . انظريها وانظرى ماذا اكتشفتُ »

هذا يوم « لوفن » جاء أخيراً ، وهو يوم فى الأيام مُعلَم مشهور . ساح الاسكندر ما ساح حتى جاء إلى الهند فاكتشف فيها مالم تره عين أغريقىّ من قبله : فيلةً عظاماً ضخاماً تملأ العينَ والقلب ، هذه الفيلة كانت عند الهندوس كالخيل عند الأغريق ، أشياء مألوفة معروفة لا تبعث فيهم دَهَشاً ولا تثير عجباً . وضرب قيصر فى الأرض ما ضرب حتى طلع به المطاف على الجزر البريطانية فراعه ما وجد فيها من أقوام بادين مستوحشين ، ولكن هؤلاء البريطانيين كانوا فيما بينهم معروفين مألوفين كألفة قيصرَ جنودَه . أما « لوفن هوك » التاجر الصغير فقد سبق العالم فأطل على عالم عجيب لا يبلغه البصر ، عالم من مخلوقاتٍ صغيرة عاشت وعاودت العيش ، ونمت وعاودت النماء ، وتقاتلت وعاودت التقاتل ، وماتت وعاودت الموت ، وكل ذلك تحت عين

الانسان وسمعه ، ومنذ بدأ الزمان ، والانسان لا يسمعها ، والانسان لا يبصرها . مخلوقاتٍ على صغرها أهلكت شعوباً وأذلت أمماً من رجال يكبرونها عشرات الملايين من الأضعاف . مخلوقاتٍ شرٍ على البشر مما خالوا من أفاعٍ تنفث النار وتنشر الفزع والدمار . مخلوقاتٍ قتالة ، تقتل فى صمت ، تقتل الطفل وهو فى دفء مهده ، وتقتل الملك بين أعوانه وجنده . تلك المخلوقات الخفية الحقيرة العدوّة اللدود – والتى قد تسالم أحياناً وتصادق – هى التى نظر اليها « لوفن هوك » أول رجل على ظهر البسيطة

— ٣ —

سبق أن حدثتكم عن « لوفن هوك » بأنه رجل كثير الشك كثير الريبة ، لذلك لما وقعت عيناه على تلك الحيوانات رآها بالغة الصغر بالغة العجب حتى لا يكاد يؤمن الرائى بها . ومن أجل هذا أعاد النظر ثم أعاده حتى انجمدت يده من مسك المكرسكوب ودَمَعت عيناه من إطالة التحديق ، فوجد أن نظرته الأولى لم تكن خُدعةً ، فها هى الحيوانات نفسها تعود فتتراءى له ، وليست هى من جنس واحد هذه المرة ، فها هو جنس ثان أكبر من الأول سريع الحركة رشيق الدوران لأن له بضعة أرجل بالغة فى الدقة ، وها هو جنس ثالث ، ورابع ولكنه صغير جداً فلا يَبين شكله ، ولكنه حيّ يدور بسرعة خاطفة فيقطع الأميال فى دنياه الصغيرة – فى تلك القطرة من الماء



ألياف عضلية من القلب مكبرة أضعافاً كما رآها لوفن هوك

وكان « لوفن » قيّاساً ماهراً ، ولكن أنى له بمقياس تُقاس به هذه الحيوانات الصغيرة . جمّع لوفن ما بين حاجبيه ، وجمّع بتجميعه أشتات فكره ، وأخذ يبحث فى زوايا رأسه وفى الأركان المهجورة من ذاكرته بين آلاف الأشياء التى تعلمها وأتقن تعلمها عله يهتدى بها إلى قياس تلك الأحياء ، وعدّد ماعدّد ، وحسب ما حسب ، وخرج من حسابه على أن «الحيوان الأخير الذى رآه أصغر ألف مرة من عين قملة كبيرة » . وكان هذا تقديراً صائباً من رجل مدقق محاذر ، فنحن نعلم اليوم أن عين القملة التامة النماء لا تزيد حجماً عن عشرة آلاف من تلك الحيوانات

ولكن من أين أتت وكيف سكنت قطرةَ الماء ؟ أجاءت من السماء ؟ أم زحفت من الأرض على جدار الأناء حتى بلغت الماء ؟ أم قال لها الله كونى فكانت من لا شئ ؟

كان « لوفن » يؤمن بالله بمقدار ما آمن به أى هولاندى من أهل القرن السابع عشر ، وكان يصفه بأنه خالق هذا الكل العظيم ، وكان فوق إيمانه يُعجب به أى إعجاب ، وكيف لا يعجب من خالق حاذق عرف كيف يصنع أجنحة النحلة بهذا الجمال المطرب . ولكن « لوفن » كان إلى جانب هذا يعتقد فى المادة وفى وساطتها ، وهداه وحى نفسه الصادق إلى أن الحياة لا تنتج إلا من حياة ، وأن الله لم يخلق هذه الحيوانات فى وعاء الماء من لاشئ . . . ولكن صبراً . . . ولم لا يخلق اللهُ ماشاء كيف شاء ؟ لاسبيل إلى معرفة مأتى هذه الحيوانات إلا التجربة . فقال لوفن لنفسه « فلأجرب »

فغسل كأس خمر غسلاً طيباً وجففه ، ورفعه إلى حيث يقطر ماء المطر من سقيفة داره ، فلما تجمع فيها بعضه أخذ منه قطرة وسلط عليها عدسته . . . نعم ! لا يزال بها قليل من تلك الحيوانات غادياتٍ رائحات . إذن فهى توجد فى ماء المطر غِبَّ نزوله . ولكن مهلاً ، فهذا استنتاج فطير ، من أدرانا ؟ لعلها كانت على السقف فنزل المطر فاكتسحها فى الكأس

فدخل لوفن بيته وخرج بصحن من الصينى داخله أزرق صقيل فغسله ورفعه إلى السماء والمطر يهطل ، ورمى بما تجمع فيه من الماء ليتأكد من نظافته ، ثم رفعه مرة أخرى ، ثم غمس فى مائه شعرة من شعراته الزجاجية وبكثير من الحذر حملها بقطرتها إلى مكتبه لينظر فيها . « لقد واتانى الدليل ! هذا الماء ليس فيه مخلوق واحد من تلك المخلوقات الصغيرة ، فهن لن يأتين من السماء »

ولكنه احتفظ بهذا الماء الساعةَ بعد الساعة ، وهو يحدّق فيه ، واليومَ بعد اليوم وهو يحدّق فيه ، وفى اليوم الرابع

أخذت تلك المخلوقات تتراءى فيه مع ذرات من التراب وخيوط القطن ونسائل التيل

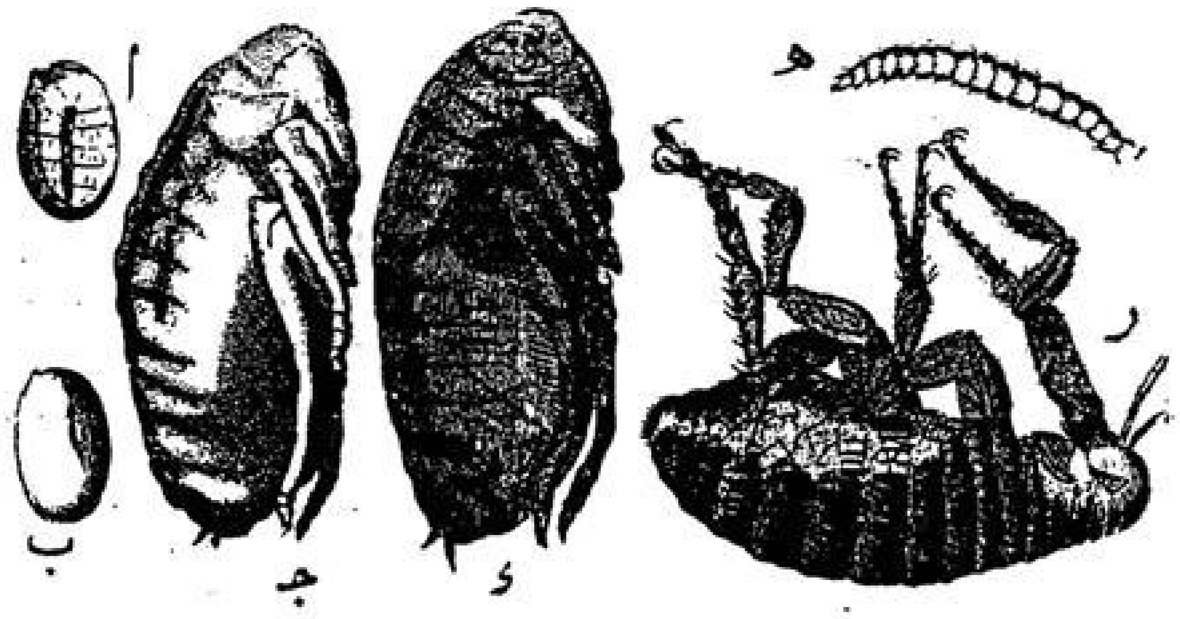
اكتشف « لوفن » هذه الدنيا الجديدة التي لم تخطر على بال أحد ، فهل كتب إلى الجمعية الملكية ينبئها خبر هذا الاكتشاف الضخم ؟ لا ، لم يكن بعدُ أخبرهم ، فقد كان رجلاً بطيئاً ، وإنما سلّط عدساته على كل أصناف الماء ، على الماء الذي في مكتبه وهواؤه محبوس ، على الماء بالقدر الذي وضعه في الهواء الطلق على سطح بيته ، على الماء الذي بقنوات بلدته وهو غير شديد النقاء ، وعلى ماء البئر البارد الذي بجنينة داره ، وفي كل هـذه الأمواه وجد هذه الحيوانات . وراعه صغرها الهائل ، فكثير منها لم يبلغ الألفُ منه حجمَ الحبة من الرمل ، وقارن بعضها بدودة الجبن ، تلك الحشرة القذرة الصغيرة ، فوقعت منها وقوع النحلة من الفرس

كان لوفن بحاثاً يبحث عن كل شيء وفي كل شيء ، ومن غير علم سابق عن تلك الأشياء . وكان من شأن هذا الضارب في أشتات الأمور أن يعثر في طريقه على كثير مما لم يقصد إليـه . وكان هذا حاله مع الفُلفُل . الفلفل حرّيف لاذع فلماذا ؟ سؤال خطر له يوماً فقال لنفسه : « قد يكون هـذا بسبب نتوءات في الفلفل حادة تشك اللسان عند الأكل فتلذعه » ولم يكد يستقر هذا الخاطر في رأسه حتى قام يبحث عن هذه النتوءات

بدأ بالفلفل الجاف فطحنه ثم طحنه ، وعطس وعرق ، ولكن لم يبلغ به الطحن الصِّغرَ الكافي لرؤيته بالعدسة . فحال أن يلينه بالتبليل فنقعه في المـاء بضعة أسابيع ثم جاء بإبرة حادّة فمزّق بها ذرات الفلفل فزادها صغراً ، ثم مصها مع قطرة ماء في إحدى تشعريّاته الزجاجية ، وأخذ ينظر فيها ، ولم يكد يفعل حتى نسى النتوءات التي كان يبحث عنهـا ، وامتلأت نفسه واغتمر حسه بما وجد من جديد . ففي الأمواه الأخرى التي رآها كان يرى الحيوانات الصغيرة التي اكتشفها بقدر معتدل يقل حيناً ويزيد حيناً . أما في ماء الفلفل هذا فقد وجد هذه المخلوقات على تنوعها كثيرةَ العدد كثرة لا تصدّق ، وهي لا تزال في ازدحامها تهيم وتسبح في رشاقة وجمال

خرج « لوفن هوك » يبحث في الفلفل عن نتوءات ، فوقع على طريقة يربّي بها حيواناته وينمّيها ويكثرها

وعندئذ ، وعندئذ فقط ، شاء أن يكتب إلى لندن يخبرها بالذي كان . وملأ الصفحة بعد الصفحة بخط جميل ولغة بسيطة يشرح ما صنع ، ويقول لهم إن حبة القمح تسع مليوناً من هذه الحيوانات ، وإن ماء الفلفل يربيها ويكثرها حتى تحوى القطرة منه ٢٧٠٠٠٠٠ منها . وتُرجم الكتاب إلى الانجليزية وتلى على الجمعية فترك عاليها سافلاً. هؤلاء العلماء كانوا قد اطرحوا الخرافات ، وكفروا بالذي كان في زمانهم من أباطيل وترهات ، ثم يأتي هذا الهولاندي يحدثهم عن حيوان تسع قطرة الماء منه بقدر ما تسع هولاندا من السكان ! تلك خرافة من خرافات الأولين ، ولا والله ما خلق الله حياً أصغر من دودة الجبن



البرغوث وأطواره كما رآها لوفن هوك مأخوذة من كتاباته عام ١٦٩٣ (ا) البيضة (ب) قشر البيضة بعـد خروج اليرقانة (ج ، د) طوران من العذراء وهي البرغوث قبل أن يستكمل (هـ) اليرقانة وهي البرغوث في طواره الدودى (ر) البرغوث الصغير عند استكماله

على أن نفراً من هؤلاء العلماء لم يضق بما سمع . فهذا الرجل كان محققاً مدققاً مفرطاً في تحقيقه وتدقيقه . وقد وجدوا صدقه في كل ما كتب لهم عنه . وعلى ذلك جاءه كتاب من لندن يرجونه فيه أن يشرح لهم بالتفصيل الطريقة التي صنع بها مكرسكوبه وأن يصف لهم كيف يستخدمها لرؤية ما يرى

وجاءه الكتاب يحمل الشك في ثناياه فغضب . ما كان يُهمه أن يضحك منه حمقى بلدته ، ولكن لم يكن يخطر في باله أن ترتاب الجمعية الملكية في قوله . لقد كان يحسب أنهم فلاسفة . أيكتب إليهم بالشرح الذي طلبوا ، أم يوليهم من الآن ظهره ويحتفظ بما يعمل لنفسه . وذكر المجهود الذي أنفقه فعز عليه ما احتمل منه ، وكأني بك تسمعه يتمتم في نفسه : رحماك اللهم فأنت تعلم كم عملت وعرقت ، وكم سهرت لكشف تلك الخبايا ، وكم

احتملت من ضحك الناس وسخرية حمقاهم فى صناعة مكرسكوباتى وتجويدها واستنباط طرق الرؤية بها . . .

ولـكن كما أنه لابد لـكل ممثل ممن يسمع وينظر ، فـكذلك لابد لـكل مبتكر من نظارة سماعة . لقد علم « لوفن » أن هؤلاء الشكاكين من أعضاء الجمعية لابد باذلون جهداً لا يقل عن جهده لأنكار دعواه . لقد جرحوه فى كرامته ، ولـكن لابد للمكتشف من نظارة ! فـكان أن كتب لهم كتاباً طويلاً يؤكد لهم أنه لم يَغلُ فيما وصف ، وشرح لهم الحساب الذى عمل ، وكتب لهم الحسبة بعـد الحسبة من قسمة فضرب فجمع حتى صار كتابه كـكرّاسة صبىّ فى مدرسة وخرج بنتائج قريبة جداً من النتائج التى يخرج بها علماء المـكروب اليوم بواسطة ما استجد لهم من عُدّة وجهاز . وختم « لوفن » كتابه بقوله إن كثيراً من أهل « دلفت » رأوا تلك الحيوانات الصـــغيرة العجيبة بعدساته فأ كبروها ! وأنه يستطيع أن يأتيهم باقرارات شرعية مبصومة مختومة ، اثنين منها من رجلين من رجال الله [1] ، وواحد من مسجلى العقود ، وثمانية أخرى من شهود عدول . أما أن يصف لهم كيف صنع مكرسكوباته فهذا مالا سبيل اليه

كان « لوفن هوك » كثير الريبة فى الناس . كان يسمح للناس بنظر الأشياء من عدساته ، ويرفعها إلى أعينهم ليجسنوا الرؤية بها دون أن يمسوها ، فان هم رفعوا يداً اليها ليتولوا بأنفسهم إحكامها أو لزيادة المتعة بها لم يكبر على « لوفن » أن يطردهم من بيته طرداً . . . كان كالطفل بيده تفاحة كبيرة حمراء يعجب بها ويسر برؤية أصحابه لها ، ولـكنه يصرخ فى وجوههم إذا نالوها بأصابعهم خشية أن ينالوها بعد ذلك بأسنانهم

وبناء على هذا وجهت الجمعية وجهها ناحيةً أخرى ، فانتدبت «روبرت هوك» Robert Hooke ونهيمياه جرو Nehemiah Grew ليقوما بصناعة أحسن المـكرسكوبات المستطاعة ، وبتجهيز نقيع مائى من أجود أصناف الفلفل الأسود . وفى الخامس عشر من نوفمبر عام ١٦٧٧ اجتمعت الجمعية وجاءها « روبرت هوك » يحمل إلى المجتمع مكرسكوبه والنقيع ، وفى خطاه سرعة ، وفى قلبه لهفة ، لأنه وجد أن « أنطون لوفن هوك » لم يَكْذب ، فهاهى تسبح

وتلعب ، تلك الحيوانات التى حدّث عنها « لوفن » . قام الأعضاء عن مقاعدهم وتزاحموا حول المـكرسكوب ، وحملقوا فيها ، ثم صاحوا : لا يكشف عن مثل هـــذا إلا رجل من عبقر . وكان هـذا يوم فخار كبير « للوفن هوك » . ولم يمض غير قليل حتى انتخبت الجمعية هـذا القمّاش عضوا بها . وبعثت إليه براءة العضوية فى إطار من الفضة وعلى غلافها شارة الجمعية

فأجابهم « لوفن » يشكرهم ويقول : « . . . . وسأخدمكم باخلاص إلى الرمق الأخير من حياتى » . وهكذا فعل . فانه أخـذ يكتب إليهم تلك الـكتب التى خلط فيها بين العلم ولغو الحديث حتى مات وسنه تسعون عاماً . وعلى كثرة ما بعث لهم من الـكتب لم يبعث إليهم بعدسة واحدة . كل شىء إلا هذه مادقّ قلبه بالحيـاة . وفعلت الجمعية كل ما استطاعت فى سبيل ذلك دون جدوى ، وأنفذت الدكتور مولينو Molyneux إليـه ليكتب تقريراً عنه فعرض عليـه مولينو ثمناً طيباً مغرياً لاحد مكرسكوباته فأبى . « يارجل ! لديك مئات المـكرسكوبات قد ترصصت فى القمطرات بحوائط مكتبك ، أفلا تستغنى ولو عن واحدة فقط ؟ » . ولـكن هيهات . « هل أستطيع أن أرى السيد رسول الجمعية الملـكية شيئاً آخر ؟ هذا محار فى زجاجة لم يولد بعد . وهـــذا حيوان غطاس سريع رشيق » . ويرفع الهولاندى عدساته إلى عين الانجليزى ليرى بها ، وهو يلحظه بركن عينه خشية أن يمس جهازاً أو ينشل شيئاً ، وهو الرسول الأمين الذى لا يشك أحد فى ذمته أو يرتاب فى أمانته . « مولاى رسول الجمعية ! . كم أتمنى لو كان فى استطاعتى أن أريك عدسة بعينها هى أحسن عدساتى ، وأن أريك كيف تنظر فيها ، ولـكنى اختصصت بها نفسى فلا أطلع عليها أحداً حتى ولا أهل بيتى »

(يتبع) أحمد زكى

[1] يقصد القسيسين

١٤ ـ محاورات أفلاطون

الحوار الثالث

فيدون أو خلود الروح

ترجمة الأستاذ زكي نجيب محمود

ـ أو قد تنساق كذلك إلى تذكر سمياس نفسه ؟

فقال ـ هذا حق

ـ وقد يكون التذكر في هذه الحالات جميعاً منبعثاً من أشباه الشيء أو مما يباينه ؟

ـ هذا صحيح

ـ وهناك سؤال لا بد أن ينشأ ، حينما يكون التذكر قد انبعث من شبيه الشيء ، وهو : هل يكون شبيه الشيء المتذكَّر ناقصاً في أي ناحية من نواحيه ، أم لا يكون ؟ (١)

فقال : هذا جد صحيح

ـ وهل نتقدم خطوة أخرى ، فنؤكد بأن التساوي موجود فعلاً ، لا تساوي الخشب بالخشب أو الحجر بالحجر ، بل ما هو أسمى من ذلك وأرفع . أنؤكد بأن التساوي موجود في عالم التجريد ؟

فأجاب سمياس : بلى : أؤكد ذلك وأُقسم على صحته بكل ما وسعت الحياة من يقين

ـ وهل نحن نعلم هذا الكنه المجرد ؟

فقال : لاشك في ذلك

ـ ومن أين جاءنا هذا العلم ؟ ألم نَرَ متساويات من الأشياء المادية ، كقطع الحجر والخشب ، فاستنتجنا منها مثالاً لمساواة يخالفها ؟ (٢) أفأنت موافق على هذا ؟ أوفانظر مرة أخرى الى الموضوع على هذا النحو : أليست قطع الحجر والخشب بعينها تبدو متساوية حيناً متفاوتة حيناً آخر ؟

ـ لا ريب في هذا

ـ ولكن هل تتفاوت المتساويات الحقيقية أبدا ؟ أم هل يكون مثال التساوي يوماً عدم مساواة ؟

ـ لا شك في أن ذلك شيء لم يُعرف بعد

ـ إذن فهذه المتساويات (كما يسمونها) ليست تطابق مثال التساوي ؟

ـ لابد من القول ياسقراط بأنها تخالفه تماماً

ـ ومع ذلك ، فأنت من هذه المتساويات ، قد تصورت مثال التساوي ووصلت إليه ، على الرغم من أنها مخالفة لذلك المثال ؟

ـ فقال : هذا جد صحيح

ـ وقد يكون مثال التساوي شبيها بها . وقد يكون مبايناً لها ؟

ـ نعم

ولكن هذا لا يغيّر في الأمر شيئاً ، فما دمت قد تصورت شيئاً من رؤية شيء آخر ، سواء أكانا شبيهين أم متباينين ، فقد حدثت بذلك من غير شك عملية تذكر ؟

ـ جد صحيح

ـ ولكن ماذا عساك أن تقول في قطع متساوية من الخشب والحجر ، أو في غيرها من المتساويات المادية ؟ وأي أثر هي تاركة في نفسك ؟ أهي متساويات بكل ما في التساوي المطلق من معنى ؟ أم أنها تقع في القياس دونه بشيء يسير ؟

فقال : نعم ، بل دونه بمسافة بعيدة جداً

ـ ثم ألا يلزم أن نسلّم بأنني ، أو أي أحد آخر ، حين ينظر إلى شيء فيدرك أنه إنما ينشد أن يكون شيئاً آخر ، ولكنه مقصّر من دونه ، عاجز عن بلوغه — فلابد أن قد كانت لدى من يلاحظ هذا معرفة سابقة بذلك الشيء الذي كان هذا الأخير أحط منه ، كما يقول ، وإن كانا متشابهين ؟

ـ يقيناً

ـ ثم أليست هذه حالنا في موضوع المتساويات والتساوي المطلق ؟

(١) يعني لو رأيت مثلاً صورة رجل ، فذكرتك بالرجل نفسه ، فهل تكون هذه الصورة ، وهي شبيهة الأصل ، منطبقة تماماً على أصلها ؟

(٢) معنى ذلك أن الأنسان قد شاهد في الحياة أشياء متساوية ، فعرف منها أن هناك تساوياً مجرداً ، مع أن ذلك التساوي المجرد ، لا يشبه هذه المتساويات التي شاهدها تمام الشبه ، لأن هذه كثيراً ما تتفاوت ، أما ذلك — إن وجد — فلا يجوز عليه التفاوت مطلقاً

ـ تماماً

ـ إذن فلا ريب فى أننا كنا نعرف التساوى المطلق قبل أن نرى المتساويات المادية لأول مرة ، وفكرنا بأن كل هذه المتساويات الظاهرة ، إنما تنشد ذلك التساوى المطلق ، ولكنها تقصر من دونه ؟

ـ هذا صحيح

ـ ونحن نعلم كذلك أن التساوى المطلق لم يعرف إلا بواسطة اللمس ، أو البصر ، أو غيرهما من الحواس التى لا تمكن معرفته بغيرها [1] وإنى لأؤكد هذا عن كل إدراك كلى من هذا القبيل

ـ نعم ياسقراط ، فكل واحد من هذه المدركات لا يختلف عن الآخر فى شىء مما يدور حوله الحديث

ـ وإذن فمن الحواس تنبعث المعرفة ، بأن كل الأشياء المحسة تنشد مثال التساوى ، ولكنها تقصر من دونه ـ أليس ذلك صحيحا ؟

ـ نعم

ـ إذن فقبل أن بدأنا فى النظر ، أو السمع ، أو الأدراك بأية صورة أخرى لابد أن قد كانت لدينا معرفة بالتساوى المطلق ، وإلا لما استطعنا أن ننسب اليه المتساويات التى نشتقها من الحواس ؟ ـ فهذه كلها تسعى نحو ذلك التساوى المطلق فتقصر من دونه ؟

ـ تلك ياسقراط نتيجة مؤكدة للعبارات التى سلف ذكرها

ـ ثم ألم نأخذ فى النظر والسمع واكتساب حواسنا الأخرى بمجرد أن ولدنا ؟

ـ يقيناً

ـ إذن فلابد أنا قد حصلنا معرفة التساوى المثالى فى زمن سابق لهذا ؟

ـ نعم

ـ أى قبل أن نولد فيما أظن ؟

ـ صحيح

ـ وإذا كنا قد حصلنا هذه المعرفة قبل أن نولد ، وكانت لدينا عند الميلاد ، إذن فقد كنا قبل الميلاد ، وفى ساعة الميلاد نفسها نعرف كذلك ، فضلاً عن التساوى ، والأكبر والأصغر ، سائر المثل جميعاً ، فنحن لا نقصر الحديث على التساوى المطلق ، ولكنه يتناول الجمال ، والخير ، والعدل ، والقداسة ، وكل ما نطبعه بطابع الجوهر فى مجرى الحوار ، حينما نلقى أسئلة ونجيب عن أسئلة ، أفنستطيع أن نؤكد ، أننا قد كسبنا معرفة هذه كلها قبل الميلاد ؟

ـ هذا صحيح

ـ ولكن ، إذا نحن بعد كسب المعرفة ، لم ننس ما كنا قد كسبنا ، فلا بد أنا قد ولدنا ومعنا المعرفة دائماً ، وسنظل أبداً على علم بها ، مادامت الحياة -- لأن العلم هو كسب المعرفة وحفظها ، لا نسيانها . أليس النسيان ياسمياس هو فقدان المعرفة لا أكثر ولا أقل ؟

ـ جد صحيح ياسقراط

ـ أما إذا افتقدنا عند الميلاد تلك المعرفة التى حصلناها قبل أن نولد ، ثم كشفنا فيما بعد ، بواسطة الحواس ، ما قد كنا نعلم من قبل : أفلا يكون ذلك ، وهوما نسميه تعلماً ، عملية لكشف معرفتنا ، ثم ألا يجوز لنا بحق أن نسمى هذا تذكراً ؟

ـ جد صحيح

لأنه من الواضح ، أننا إذ ندرك شيئاً بواسطة البصر ، أو السمع ، أو أية حاسة أخرى ، لانصادف صعوبة فى أن ينشأ لدينا من هذا الشىء ، تصور لشىء آخر ، يشبهه أو يباينه ، كنا قد أنسيناه ، وكان قد ارتبط بذلك الشىء ، وعلى ذلك ، فكما سبق لى القول ، يقع أحد الأمرين : إما أن هذه المعرفة كانت لدينا عند الميلاد ، وظللنا نعلمها طول الحياة ، وإما أن يكون أولئك الذين يقال عنهم إنهم يحصلون العلم ، بعد ميلادهم ، لا يفعلون أكثر من أن يتذكروا ، فما العلم إلا تذكر وكفى

ـ نعم يا سقراط ، هذا جد صحيح

ـ فأى الأمرين تؤثر يا سمياس ؟ أكانت المعرفة لدينا عند الميلاد ، أم أنا قد تذكرنا فيما بعد الأشياء التى كنا نعلمها قبل ميلادنا ؟

ـ لا أستطيع الحكم الآن

(يتبع) زكى نجيب محمود

(١) لأننا أدركنا بالحواس أشياء متساوية ، فاستنتجنا وجود التساوى المطلق ، فكأننا أدركنا هذا الأخير عن طريق الحواس ، مع أنه عقلى محض . وقل مثل ذلك فى سائر المدركات الكلية ، كالجمال والخير وما اليهما ، فقد جاءتنا عن طريق الحواس أشياء جميلة : وردة ، وامرأة ، وشروق وهكذا ، فعرفنا عن طريقها فكرة الجمال المطلق

دار الحديث الأشرفية
والمتحف العربي بدمشق

بعنوان « الخالدى » نشر الاستاذ الدكتور عبد الوهاب عزام فى العدد الثامن والسبعين من « الرسالة » الغراء مجلساً من مجالس الأستاذ الكبير الشيخ خليل الخالدى ، وحسناً فعل ، فان أمثال الشيخ الخالدى بيننا قليل ، ويجب أن ينتفع بمعارفهم وثمرات بحوثهم . وحبذا لو عمد كل من يلقاهم أو يسمع منهم شيئاً إلى تسجيله ونشره ماداموا هم لم يدونوا مذكرات منظمة عن أبحاثهم ، فليس من السهل أن نجد شخصية مثل الشيخ الخالدى غزارة علم وسعة اطلاع ، وإن الأنسان ليعجب عند ما يستمع اليه وهو يتحدث عن كتاب نادر ، فيصفه وصف الدارس المطلع ، بل يتجاوز ذلك فى كثير من الأحيان فيذكر عبارات الكتاب سرداً عن بديهة . ثم ينتقل من وصف الكتاب الى ترجمة مؤلفه ، فيذكر الكثير من شأنه مما لا نجده فى كثير من البحث والدرس ، ثم ينتقل من ذلك الى عصر المؤلف ، وحال الحركة العلمية فيه وما الى ذلك ، فمجالس الشيخ الخالدى شائقة ممتعة نرجو الذين يجالسونه ويستمعون له تدوين مجالسه ونشرها على الناس كما فعل الدكتور عزام

عرفت الشيخ الخالدى فى دمشق أواخر سنة ١٩٢٩ ، أيام ترددى على دار الكتب العربيـة ، لذلك لفت نظرى مقـال الدكتور عزام وقرأته بشغف شديد حتى أتيت على ذكر المدارس فى دمشق فاستوقفنى قوله : « ومن مدارس دمشق دار الحديث الأشرفية وهى دار المتحف العربى الآن » استوقفنى هذا كثيراً لأنى أعرف دار الحديث الأشرفية كما أعرف دار المتحف العربى وأن كلا من الدارين غير الأخرى ، فدار الحديث الأشرفية التى بناها الملك الأشرف موسى بن العادل ، ونجز بناؤها سنة ٦٣٠ ﻫ والتى درس بها جلة من العلماء مثل ابن الصلاح وابن الحرستانى وأبى شامة والنواوى والشريشى والفـارقى وابن الوكيل وابن الزملكانى والحافظ المزنى والسبكى وابن كثير وغيرهم ــ هذه الدار لا تزال تؤدى رسالتها فى نشر العلم ــ وعلم الحديث بنوع خاص ــ الى يوم الناس هذا ، وقد اعتراها شىء من الفتور فى أواخر القرن الماضى حتى أرسل الله لها الفقيه الشيخ يوسف البيبانى المغربى ، فأعاد اليها حياتها ونشاطها ، ثم تولى شأنها من بعده المحدث الكبير الشيخ بدر الدين الحسني ، ولا يزال يلقى دروسه فى دار الحديث الأشرفية ويحضرها الكثير من كبار العلماء . وأما المتحف العربى فى دمشق فهو دار المدرسة العادلية الكبرى التى تقع فى مواجهة المدرسة الظاهرية

والمدرسة العادلية التى بناها نور الدين محمود بن زنكى ولم يتمها ، ثم الملك العادل سيف الدين ولم يتمها أيضاً ، حتى أتمها من بعده ولده الملك المعظم ونسبها الى والده الذى دفن فيها فسميت العادلية

كانت هذه المدرسة من أمهات المدارس الخاصة بالشافعية فى دمشق [1] كما كانت مقر القضاة فيها

سكنها الكثير من كبار العلماء أمثال ابن خلكان والعلاء القونوى . وأبناء السبكى وابن مالك النحوى وابن جماعة

وفيها ألف ابن خلكان تاريخه المشهور وعلى بابها كان يقف ابن مالك يدعو الناس لحضور دروسه ، ينادى هل من متعلم هل من مستفيد ؟ وحول بركة العادليـة كان قاضى القضاة شمس الدين ابن خلكان يدور الليل كله حتى الصباح ويقول فى دورانه :

أنا والله هالك   آيس من سلامتى
أو أرى القامة التى   قد أقامت قيامتى

ولما أسس المجمع العلمى العربى فى دمشق سنة ١٩١٩ م جعلت مقر المجمع ، وهى الآن تضم المجمع العلمى والمتحف العربى وقاعة المحاضرات التابعة للمجمع . وعلى ذكر العادلية وشغل المجمع العلمى لها أقول : إن المجمع وضع يده أيضاً على المدرسة الظاهرية التى أنشأها الملك الظاهر بيبرس ودفن بها هو وابنه الملك السعيد

والظاهرية كانت مدرسـة ودار حديث معاً ، درس بها الأذرعى والأخنائى والسويدى والأسدى والرعيني والواسطى

فتسلمها المجمع العلمى العربى وجعلها مقر دار الكتب العربية فى دمشق ، وخص القبة الظاهرية المزينـــة بالفسيفساء البديعة بالمخطوطات المحفوظة فى الدار ؟

برهان الدين محمد الداغستانى

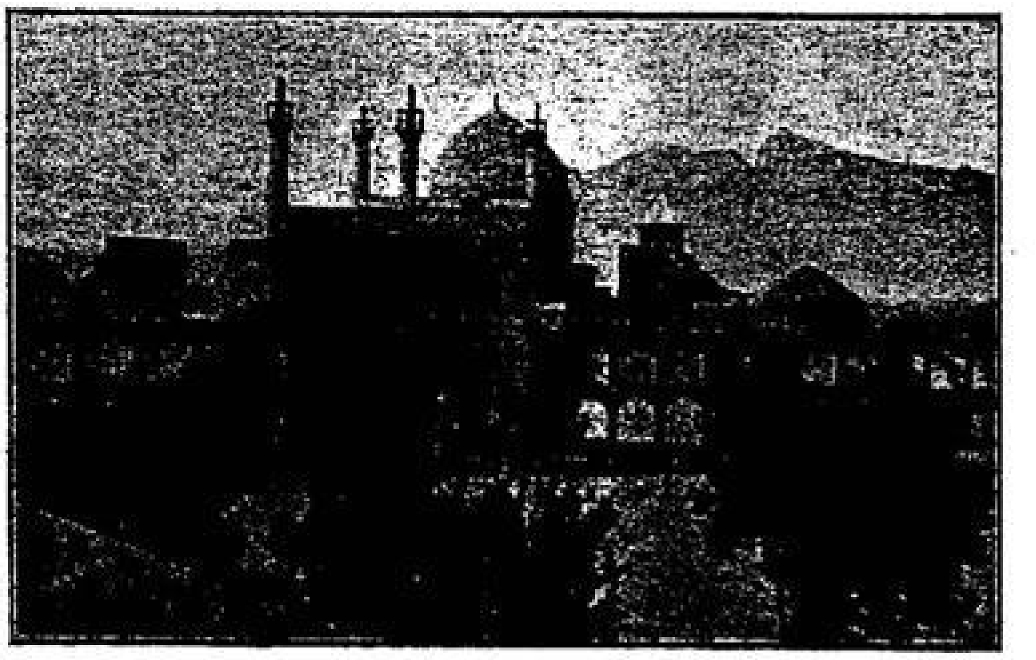
(١) كانت فى دمشق مدارس لكل مذهب من المذاهب الأربعة كما كانت فيها دور للقرآن ودور للحديث ، ويجد القارئ الشىء الكثير عنها فى تنبيه الطالب للشيخ عبدالقادر النعيمى . ومنادمة الأطلال للشيخ عبدالقادر بدران . وفى خطط الشام للأستاذ محمد كرد على عضو المجمع اللغوى الملكى بمصر

١٢ – بين القاهرة وطوس

اصفهان الى سلطان آباد

للدكتور عبد الوهاب عزام

والباب العالى بناء ضخم قسمه الأمامى إيوان عال يمسك سقفه الرفيع ثمانية عشر عموداً ، مشرف على الميدان ، ووراء الايوان بناء ذو طبقات ست وسلاليم ضيقة ، وفى كل طبقة حجرات قليلة صغيرة ، وهذا البناء كله كان لجلوس السلاطين مشرفين على اللعب فى الميدان ، ولاستقبال الوفود أحياناً ، وكان بابه المظيم مفتوحاً ليل نهار يأوى اليه أصحاب المظالم فترفع الى الشاه ظلاماتهم



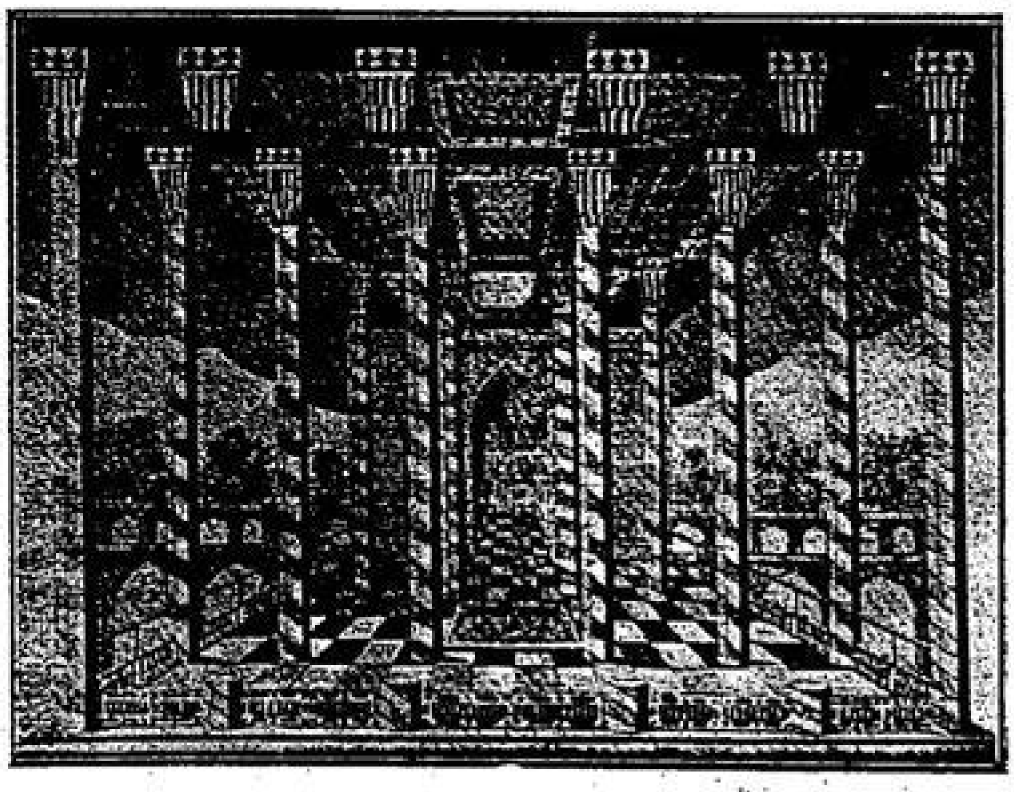
مسجد الشاه بأصبهان

ومن الآثار التى رأيناها ، المسجد الجامع ، وهو من أكبر المساجد سعة رقعة وضخامة بناء ، وقد كمل بناؤه الحاضر فى عهود مختلفة ، وهو أقدم مساجد أصفهان . إيوان القبلة له قبة عالية ضخمة مبنية بالآجر ، والى الغرب إيوان صغير جميل أظنه من آثار الصفويين ، ووراءه مصلى كبير يؤخذ مما كتب على قبلته أنه بنى سنة عشر وسبعمائة ، ووراء هذا مصلى كبير لانوافذ له ، وفى سقفه كُوًى ينفذ ضوؤها من أحجار من المرمر شفافة

وفى المسجد إيوانات أخرى ومصلى له قبة صغيرة زعم بعض الأدلاء أنه كان بيت نار ، وأن القبة الكبرى كانت كذلك ؛ وذلك زعم لا يصدقه التاريخ وفن البناء . وقصارى القول أن المسجد الجامع بأصفهان من عجائب الأبنية ، وأن فيه للتاريخ وفن العمارة درساً طويلاً . وفى الجمعية الجغرافية الآن عشرات الصور تبين عن أقسام هذا الجامع العظيم ودقائقه .

وأكبر الظن أن هذا هو الجامع الذى وصفه مفضل بن سعد ابن الحسين المافروخى فى كتابه « محاسن أصفهان » حيث يقول : « والجامعان : الكبير العتيق البديع الأنيق . بنى أصله القديم عرب قرية طبران وهم التيم . . . ثم أعيد فى أيام المعتصم سنة ست وعشرين ومائتين ، ثم زاد فيه أبو على بن رستم فى خلافة المقتدر ، فصار أربع أدور يماس كل حد من جماعتها رواقاً ، يلاصق كل رواق منه أسواقاً . . . . وهو منذ اتخذ يطن بالتهليل والتحميد ، ويحن بالتسبيح والتمجيد . لا ينظم لأحدى الصلوات الخمس أقل من خمسة آلاف رجل . وتحت كل اسطوانة منه شيخ مستند ينتابه جماعة من أهلها بوظيفة درس أو رياضة نفس . تزين بمناظرة الفقهاء ، ومطارحة العلماء ، ومجادلة المتكلمين ومناصحة الواعظين ، ومحاورات المتصوفين ، وإشارات العارفين ، وملازمة المتكفين . الى ما يتصل به من خانكاهات فوراء مرتفعة وخانات عامرة متسعة ، وقد وقفت لأبناء السبيل من الغرباء والمساكين والفقراء . وبحذائه دار الكتب وحجرها وخزائنها الخ

والباب العالى الذى ذكرته آنفاً كان يؤدى الى حدائق واسعة فيها قصور كبيرة رائعة ، رأينا منها قصر « چهل ستون » أى قصر الأربعين عموداً الذى بناه الشاه عباس واحترق فعمره الشاه



قصر چهل ستون للشاه عباس

سلطان حسين وهو كما رأيناه اليوم ، بناء وسط حديقة واسعة ،

ومقدم البناء رواق رفيع واسع يقوم بسقفه عشرون عموداً رفيعاً كل عمود قطعة واحدة من خشب الداب ، وكان مكسواً بالمرمر تعلوه قطع المرايا على الأسلوب المألوف فى البلاد الفارسية ، وللبناء على الجانبين رواقان آخران صغيران ، ووراء الرواق الأكبر مدخل يفضى الى قاعة كبيرة ، ووراءها حجرات

وفى رواق الجانب الأيمن نقوش كثيرة ، بعضها يصور نفراً من الموسيقيين والمغنين ، وبعضها يمثل جماعة من سفراء دول أوربا الذين وفدوا على الملوك الصفويين ، وفى القاعة الكبرى صور زيتية كثيرة تمثل الملوك الصفويين مستقبلين ضيوفهم أو محاربين أعداءهم ، وهى صور تذكر بصور قصر فرسايل فى فرنسا

وأمام البناء كله حوض كبير على حافته نافورات ، ينعكس فيه مرأى الرواق الامامى . قال محدثنا : للرواق عشرون عموداً وهذه مثلها فى الماء ، فمن أجل هذا سمى قصر الأربعين عموداً

والحق أن آثار الصفويين فى أصبهان على ما نالها من عوادى الزمان تشهد بما كان لهم من الغنى والأبهة ، وبما كان فى الدولة من العمران والصناعات ، والنبوغ فى العمارة والنقش

ورأينا آثاراً أخر يضيق المقام بوصفها ، ثم أوينا الى الفندق وفى خيالنـا جلال الماضى وجماله ، وأمام أعيننا ما كان من تبدل وتحول

عصف الدهر بهم فانقرضوا وكذاك الدهر حال بعد حال

خرجنا العشية ، فجلنا فى أطراف المدينـة ، ورأينا القناطر المشيدة على نهر زنده رود ، ورأينا مصنعاً كبيراً لآل اليزدى ينسج فيه الصوف ، ثم ذهبنا الى السوق ، وسوق أصفهان من أعظم الأسواق فى الشرق ، فرأينا بدائع صناعة اصفهان ، واشترينا منها ثم رجعنا إلى الفندق

ولما حان موعد العشـاء خرجنا إلى دار الحكومة إجابة لدعوة الحاكم . فنعمنا هناك زمناً بحديث السيد الهمام قاسم صور اسرافيل ورئيس البلدية ، والشاعر الانكليزى درنيكووتر والدكتور شميت الألمانى . ثم عدنا إلى الفندق نمشى فى القمراء وقد هوّد الليل ، فقلنا حبذا لو امتد بنا المقام

بكرنا إلى الرحيل ونحن نذكر قول أبى عبد الله الحسين النطرى :

حوت أصـفهان خصالاً عجاباً بها كل ما تشتهيه استجاباً

هواء منـــيراً وماء نميراً وخيراً كثيراً ودُوراً رحاباً

وترباً ذكيـــاً ونبتاً رويّاً وروضاً رضياً يناغى السحابا

وفاكهـــة لا ترى مثلها نســـيماً وطعماً ولوناً عجاباً

تفيـد الأعـــلاّءَ برءاً كما يفيـد الربيع الرياض الشبابا

وزاد محاســـنها زنّـروذ مياهاً كطعم الحياة عذاباً ألخ

فارقنا أصبهان والساعة ثمان وربع من صباح الاثنين ثالث عشر رجب (٢٢ أكتوبر) عائدين أدراجنا تلقاء قمّ — ومن أصفهان إلى كرمانشاهان طريق تسير شطر الغرب لا تمرّ بقم ، وهناك طريق أخرى إلى سلطان أباد فى العراق العجمى ، ولكن سائق سيارتنا ، وهو خبير بالطرق ، أبى إلا أن يسلك طريق قم إلى سلطان أباد فهمذان فكرمانشاهان لأنها طريق معبدة مطروقة معروفة ، ومررنا والساعة تسع ونصف بقرية صغيرة اسمها مورچه خورد (النملة أكلت) قال السائق هـذه قرية دعا رسول الله صلوات الله عليه أهلها إلى إطعام بعض الفقراء فأخفوا ما عندهم من طعام فدعا الرسول عليهم فأكلت النملة ما ادخروه من قوت :

ووردنا دليجان والساعة اثنتا عشرة فوقفنا موقفنا الأول على المطعم الذى وصفته آنفاً ، فجاء صاحبه وقال قد هيأت لكم الطعام ، قلنا أعددت دجاجة ؟ قال نعم وغيرها ، فصعدنا إلى الطبقة العليا فاسترحنا ثم جاءنا الطعام فأكلنا مسرورين فكهين

واستأنفنا المسير والساعة واحدة وأربعون دقيقة ، فلقينا على الطريق زميلنا فى المؤتمر الدكتور نظام الدين الهندى ، فوقفنا نجـدد العهد به . ثم سرنا قليلاً فاذا ثلاثة من أعضاء المؤتمر : ألمانى وأمريكى وتركى مقيم فى أمريكا ، فتحدثنا قليلاً ثم افترقنا وكان هؤلاء يؤمون أصفهان فشيراز

بلغنا قم والساعة أربع فلم ندخلها ، بل ملنا عنها شطر الغرب نريد سلطان آباد . ونزلنا بعد نصف ساعة ببناء عند أشجار على مقربة من نهر قم . قلت للسائق أى موضع هذا ؟ قال تخت شير (تخت الأسد) شربنا الشاى ، وطلبنا شمامة (خربوزه) فجاء رجل بشمامة وبطيخة قلنا هـذه البطيخة قديمة ، فما رأيك فى الشمامة ؟ قال حلوة جداً . قلنا شققها . فاذا شمامة غير ناضجة فقمنا نندب أملا ضاع بين قدم البطيخ وحداثة الشمام . ولم أنس من بعدُ تخت شير وشمامته . وكان مسيرنا فى أرض عامرة تبدو فيها

فى تاريخ الأدب المصرى

٣ - ابن النبيــــه

للأستاذ أحمد أحمد بدوى

— ٥ —

أهم أغراض شعر ابن النبيه المدح والغزل والرثاء والوصف ، ولقد كان مدح شاعرنا رقيقاً بارع الأسلوب ، يستهوى السامع ويأسره ، ويستطيع أن يملك قلب الممدوح فيهبه جزيل الهبات ، وهو يبدؤه بالغزل غالباً وأحياناً كثيرة يبدؤه بذكر الخمر ومجالسها والساقى وجماله وحينما مدح الخليفة الناصر أحمد بدأ مدحه بذكر الناقة التى حملته إلى الممدوح ، وقربته من مقر حكمه ، كما كان فى بعض الأحيان يبدأ مدحه بدون تقدمة ، غير أنه كان حينما يأتى بمقدمة قبل مدحه يجيد غالباً التخلص منها إلى المدح بلباقة وبراعة فهو حين يبدأ بالغزل مثلاً يتخلص إلى المدح بمهارة كقوله :

عسى قلبه يعديه قلبى برقة ... كما طرفه الفتان بالسقم أعدانى
لئن كان ينسى عقد عهد مودتى ... فلى ملك من فضله ليس ينسانى

وحين يبدأ بالخمر يحسن التخلص منه كذلك مثل قوله بعد أن وصف الخمر :

حمراء تفعل بالألباب ما فعلت ... سيوف شاه أرمن فى عسكر لجب

ولقد كان فى النادر يطيل المقدمة إطالة كبيرة حتى تغير على المدح المقصود من القصيدة ، ولقد كانت المقدمة مرة سبعة عشر بيتاً فى حين أن المدح لم يستغرق أكثر من أحد عشر بيتاً ، غير أن هنا ملحوظة أحب أن أوجه النظر إليهـا ، تلك هى صيحة التجديد التى رفع الصوت بها ، منددأ بأولئك الذين جعلوا كل همهم تقليد الأقدمين فى بدء الشعر بالحديث إلى الأطلال وسؤال الديار ، وهو فى تلك النزعة يشبه — إلى حد كبير — أبا نواس الذى صاح قبله تلك الصيحة ، واستمع إلى ابن النبيه يقول :

شكر المدام وشكر موسى مذهبى ... فلقد محوت بطاعتى عصيانى
شغلى مدائحه وغيرى لم يزل ... كالبوم يندب دارس الجدران
للبيد والقفر الدوارس معشر ... عدل الزمان بشأنهم عن شانى

فأنت تراه يشبه أولئك الذين يتحدثون إلى الديار بالبوم تندب دارس الجدران ، ثم يؤكد لك أن مذهبه لا يشبه مذهبهم ، وطريقته لا تتفق مع طريقتهم ويقول :

حسبك لا يغنى سؤال الديار ... قم ، فاصرف الهم بكأس العقار
واستنطق العيدان إن كنت ذا ... لب فما ينطق صم الحجار
البم والزير وكأس الطلا ... أولى بمثلى من سؤال الديار

وهو يشبه فى ذلك أبا نواس الذى سفه أولئك الباكين على الأطلال والآثار ، وصرح بأن الأولى والأفضل أن يبدأ الشعر بذكر الخمر وما إلى الخمر

ولقد سار ابن النبيه على تلك الطريقة فلم يبدأ شعره يوماً بسؤال حجر ولا استنطاق أثر ، وهناك نقطة ثانية تراها فى بعض مدحه تلك هى نقطة الاستطراد والدخول فى موضوع جديد بمناسبة ذكره ، ولنمثل لذلك بمدحه للخليفة الناصر فهو قد مدحه وأثنى عليه ، وما هو إلا أن ذكر انتسابه للنبى حتى مضى يمدح النبى ، ويذكر خصاله ومعجزاته . ولعل ذلك نشأ من أن الخليفة فى ذلك الوقت لم يكن له من السلطان والقوة شىء ، وإنما كان يعتز بالسلطة الروحية التى تستمد من النبى ، فلا جرم كان مدح النبى مصـدر تلك السلطة مدحاً للخليفة ، وترقية من شأنه ، هـذا وقصائد مدحه متوسطة بين الطول والقصر غير أنه كان يقصرها أحياناً ، ولـكن لا يفوته أن يعتذر عن هـذا القصر ،

القرى والزروع والأشجار ، والبيادر ليست كالطريق بين طهران وأصفهان . ومررنا بقرية صغيرة وقف عليها السائق قائلاً لا يفوتنا أن نأكل من عسل هذه البلدة فهو حديث الركبان . ثم دخل بناء إلى جانب الطريق ، وعاد بقليل من العسل والزبد والخبز . وقد صدّق الخُبر خبر صاحبنا فقد وجدنا عسلاً صافياً بارداً فقلنا قد أبدلنا الله بشامة تحت شير عسل راهجرد . وتمادى بنا السير حتى اجتزنا بقرية اسمها ابراهيم آباد فعلمنا أننا على مقربة من غايتنا ، وبعـد نصف ساعة وقفنا فى مدخل سلطان آباد والساعة ست وخمس وأربعون مساء بعد أن فصلنا أصبهان بعشر ساعات ونصف ، فرأى الشرطة جواز السفر ودخلنا المدينة :

عبد الوهاب عزام

ولنختم الحديث عن مدحه بذكر قطعة صغيرة تعطيك صورة عن هـذا المدح : قال يمدح الملك الأشرف ، ويذكر دخوله مدينة خلاط :

أبىٌّ ، سخىٌّ تحت سطوته الغنى ... تخف وتيقن أن فى عسره يسرا
هو البحر بل أستغفر الله إن فى ... بنان يديه للندى أبحرا عشرا
لحى الله حربا لم يكن قلب جيشها ... ومجلس عدل لا يكون به صدرا
أطل على أخلاط يوم قدومه ... بلجة جيش يملأ السهل والوعرا
تلقاه من بُعد المسافة أهلها ... فذا رافع كفا وذا ساجد شكرا
فشككت أن الناس قد حشروا ضحا ... أم الناس يستسقون ربهم القطرا

أما غزل شاعرنا فنوعان : غزل هو مقدمة لمدح ، وغزل قصد إليه قصداً وعناه من أول الأمر ، وهو فى كلا الغزلين عذب جميل تحس فيه رقة الهوى وشكواه ، وقد تحدثنا عن تغزله بالغلمان : السقاة منهم والجنود ؛ ومن الرقيق هنا أنه كان يستخدم ألفاظاً للتورية كقوله فى غلام يهودى :

من آل إسرائيل علقته ... عذبنى بالصد والتيه
أنزلت السلوى على قلبه ... وأنزل المن على فيه

على أن غزله لم يقتصر على المذكر ، بل كان يتغزل كذلك بالمؤنث وإن كان قليلاً . ومن أرقه قوله :

إلى كم أكتم البلوى ودمعى ... يبوح بمضمر السر الخفى
وكم أشكو للاهية غرامى ... فويل للشجى من الخلى
ممنعة لها طرف سقيم ... شديد الأخذ للقلب البرى
وشاحاها على خصر عديم ... ومئزرها على ردف ملى

وقد صدرنا مقالنا بشىء من هذا الغزل الرقيق الذى شهر به شاعرنا حتى أصبح يقال فى حقه : هو صاحب الغزل البديع ، فهو جميل حين يصف لك الحب وإن كان وصفا حسياً ، وجميل حين يذكر أيام الوصل أو حين يعيد إلى نفسه ذكرى الأيام العذبة ويقول :

أرى لأيامى بوصلك عودة ... ولو أنها فى بعض أحلام السكرى
زمن شربت زلال وصلك صافيا ... وجنيت ورد رضاك أخضر مثمرا
ملكتك فيه يدى فحين فتحتها ... لم ألق إلا حسرة وتفكرا

لننصت إليه حين يقول ارتجالا :

أمانا أيها القمر المطل ... فمن جفنيك أسياف تسل
يزيد جمال وجهك كل يوم ... ولى جسد يذوب ويضمحل
وما عرف السقام طريق جسمى ... ولكن دلَّ من أهوى يدل
إذا نشرت ذوائبه عليه ... ترى ماء يرف عليه ظل
أيا ملك القلوب فتكت فيها ... وفتكك فى الرعية لا يحل
قليل الوصل ينفعها فان لم ... يصبها وابل منه فطل
أدر كأس المدام على الندامى ... فمن خديك لى راح ونقل
فنيرانى بغيرك ليس تطفى ... وأحزانى بغيرك لا تبل

فهو مع استخدامه الصناعة اللفظية لم يزل جمال الشعر رائعاً خلابا كما ترى

(يتبع)

أحمد أحمد بدوى

القُبلة الممنوعة

تحفة من الشعر الرائع

للعالم الشاعر الأستاذ أحمد الزين

ياغُنّة الصدر من حَرّ الجوى زيدى ... أبَتْ شفاهكِ حتى بالمواعيد

سِحرية الفم لو مَسّت بقُبلتها ... فمَ العَييِّ لحلّت كلّ معقود

تكاد من رِقّةٍ تُغرى مقبّلها ... أن يحتسيها رحيقاً غيرَ مورود

قد صاغها الله لمّا أشركت أُمّمٌ ... به وقال اشهدوا برهانَ توحيدي

قل للبخيلة جودى لا لقيتِ جوًى ... إن كان يشفع لى قولى لها جُودى

وساعةٍ تحت أفياء الهوى سَلَفت ... ياساعةً تحت أفياء الهوى عُودى

ماضرّ لو أنها فى قُبلةٍ سَنَحت ... مَنّت بوعدٍ وإن ضَنّت بموعود

هل حاذرت حَرّ شَوقى حين ألثمها ... أن تُذبِل الوَردَ أنفاسى بتصعيد

رُحماكِ لليائس المطول يُقنعه ... من الوجود خيالٌ غيرُ موجود

ظمآنُ لا رَشَفاتُ الماء صافيةً ... تروى صداه ولا بنتُ العناقيد

شفاؤه قبلةٌ لو أنّ محتضَراً ... داوى بها الموتَ رُدّت غير مردود

فكم أقبّل ثغرَ الزّهر من شَبَهٍ ... بثغركِ العذبِ فى حُسنٍ وتوريد

عينٌ من الخلد مَن ينهل بكوثرها ... وِردَ الحياة يَفُز منه بتخليد

صوتٌ من القلب أمليه على فمها ... وعهدُ حُبٍّ على الأيام ممدود

وللقلوب لغاتٌ ليس يدركها ... سوى فؤادٍ بنار الوجد معمود

حديثُ شوقٍ بلا حرفٍ ولا كَلِمٍ ... تُفضى به شفتى للخدّ والجيد

معنًى من الحبّ يسمو أن أؤدّيه ... بكلّ لفظٍ من الألفاظ محدود

اللفظ يَثقل بالترديد موقعُه ... وتلك تحلو معانيها بترديد

دع الرسائل فيما لا تحيط به ... تلك اللغاتُ ودع صَوغَ الأناشيد

فللشفاه على أمثالها لغةٌ ... أحلى على السمع من مزمار داود

أدّتْ عن القلب ما يُعيا اللسانُ به ... كمنطق الطير غِرّيدٌ لغِرّيد

كم قُبلةٍ لا أرى الدنيا لها ثمناً ... فلا تَبِعْ غيرَ معدودٍ بمعدود

أحمد الزين

على مذهب روسو

ثورة على الحضارة

للأستاذ محمود غنيم

ذَرَعتم الجو أشبارا وأميالا ... وجُبتم البحر أعماقا وأطوالا

فهل نَقَصتم همومَ العيش خردلةً ... أو زدتمو فى نعيم العيش مثقالا ؟

صرعى الهواء وغرقى الماء قد كثروا ... وراكب الخيل جرّ الذيل مختالا

العيسُ ألين ظهرا من مراكبَ إن ... جنَّبن هولا فقد قرّبن أهوالا

تسنّم القوم غربَ الجو وانطلقوا ... كأنّ للقوم فى الأفلاك آمالا

أقسمت لو دنت الأفلاك طائعة ... فنالها المرء لم يقنع بما نالا

***

إنى أرى الناس مازادوا رفاهيةً ... فى العيش زادوه تعقيدا وإشكالا

كم هان أمر فقلدناه طائفةً ... من الحواشى وحملناه أثقالا

تجاوز العرفُ والعاداتُ حدّهما ... فأصبحا فى رقاب الناس أغلالا

يا طالما حدثتنى النفس قائلةً ... أنحن أنعم أم أسلافنا بالا ؟

كانت حياتهمو تُضفى بساطتُها ... عليهمو من هدوء البال سربالا

كم للمحاكم أحكام يقوم بها ... فى البدو فيصلُه - والقولُ ما قالا

لا الحق ضاع إذا ماعيّ مدرهُهُ ... ولا ترقّبُ يوم الفصل قد طالا

قدّرتم الوقت تقدير الشحيح به ... فكدتمو تملؤون الليل أعمالا

أتخمتمُ الوقت بالأعمال ويحكمو ... هلا أضفتم إلى الآجال آجالا !

***

تحضّر الناسُ حتى ما المكرمة ... قُدْسٌ لديهمو لكن قدّسوا المالا

فى كل مملكة حربٌ منظمةٌ ... تضم جيشين : مُلاّكا وعمالا

يد السياسة بالأخلاق قد عبثت ... وقوّض العلم صرح الدين فانهالا

البدو أكرمُ أخلاقا وأحسبهم ... لله أكثرَ تقديسا وإجلالا

قالوا : تألق نور العلم ، قلت لهم : ... بل ناره أصبحت تزداد إشعالا

عهد الحسام بفضل العلم قد درست … آثاره وزمان الرمح قد دالا
يارُبّ حرب بغير العلم ما اتّقدت … وربّ جيشٍ بغير العلم ما صالا
مدمّراتٌ وغازات مسمّمة … تصوّر الموتَ ألوانا وأشكالا
لنا جرائمُ لم يسبق بها زمنٌ … باتت تزلزل ركن الأمن زلزالا
كم وضّح العلم منهاجا لمختلس … وبات يحمى من القانون مغتالا

* * *

ابنُ الحضارة جسم دون عاطفة … يكاد يحسبه رائيه تمثالا
وبرقها خلّب يغريك بارقُه … جتى إذا شِمتَه ألفيتَه آلا
رسالة الغرب لا كانت رسالته … كم سامنا باسمها خسفا وإذلالا
وصوّرتْه لعين الشرق أمثلة … عُليا وصوّرنا الرحمن أمثالا
تغزو الحضارة أقواما لتسعدهم … والزنج أسعد من أربابها حالا

* * *

هى الطبيعة ما برّ الأنامُ بها … أمّا وبرت بهم من قبلُ أنجالا
هل تشهرون عليها الحرب ويحكمو … وكم طوت قبل هذا الجيل أجيالا
عودوا إلى حجرها إن شئتمو رغدا … كما نشأتم بهذا الحجر أطفالا
صوت الهزار وصوت العود أيُّهما … أقواها أثراً فى النفس فعالا ؟
أقسمت ما نظرت عينى بحاضرة … كالرمل أصفرَ أو كالماء سلسالا
إذا نظرتُ إليكم من ذُرا جبلٍ … لاحت قصورُكم الشماء أطلالا
يارُبَّ قصر له شمسُ الضحى طنفٌ … بين العيون وبين الشمس قد حالا
يودّ ساكنُه لو كان منطلقا … كالذئب يسكن أحراجا وأدغالا
قودُوا البخار وسوقوا الكهرباء فما … زلتم بأسرار هذا الكون جهّالا
لكم حياةٌ وموتٌ كان سرُّهما … من عهد آدمَ مستوراً وما زالا

كوم حمادة — محمود غنيم

وداع ...

بقلم وصفى البنى

يا عهوداً من حياتى شطرت … كيف أصبحت وراء العدمْ ؟
أنت من قلبى شظايا ألمٍ … كيف أرمى عن بقايا الألم ؟
يا عهوداً قد تولّى ذكرها … أنت من ليلى منار الأنجم
سوف أمشى فوق آلامى وما … فى فؤادى من بقايا الأسهم
مسرعاً فى الليل أعدو كى أرى … نور أيامٍ تغذت من دمى
هل يطول الليل دهراً كاملاً ؟ … بل سيمضى رغم أنف النوّم

* * *

يا عيونى ما بكائى والأسى … غير أصواتٍ بوادٍ مظلم
قد سكبت الدمع فى أمسى ولم … أستمع غير التشكى من فمى !
خلنى أحيا ضحوكا فالبكا … سوف يكوينى بنار الندم
قد شربت الكأس مراً علقماً … واحتسيت الصبر فوق العلقم
فلنقف يادهر ، ذا وادى الشقا … من يرى الوادى وفيه يرتمى ؟..
هذه دنياىَ ما عيشى بها … باكياً إلا كليلٍ أقتم !
قد تراءى الفجر يزجى نوره … فى حنايا الليل يجرى كالدم
فلنودّع يا رفاقى أمسنا … إن نجم الصبح أغرى مبسمى !

دمشق — وصفى البنى

فصول ملخصة في الفلسفة الألمانية

٨ – تطور الحركة الفلسفية في ألمانيا

للأســـتاذ خليل هنداوي

شوبنهاور

« Schopenhauer »

١٧٨٨ — ١٨٦٠

هـــذا هو شوبنهاور الذي طبع الفلسفة الألمانية بطابع التشاؤم، فتركها مظلمة قاتمة، يخال الجائح إليها أنه نازل في أنفاق بعضها أقتم من بعض. نشأ نشأته الأولى بهدوء وسكينة، لا يكاد الناظر إلى وجهه النحاسي يتبين أن وراء هـذا الوجه خيوطاً سوداء متصلة بقلبه الأسود؛ وقد خانه الجد في أول عهده كما يخون العظماء، فكبا فاستثقل أن ينهض من كبوته، فما زاده ذلك إلا حقداً على الناس ومبالغة في الانتقام منهم. اتخذ رسله إلى الناس الكتب؛ فكان أول كتبه « الجذور الأربعة لمبدإ السبب الأتم »، فخاض كتابه في صفوف الناس فلم يلق إلا فشلاً، لأنه لا يزال خامل الاسم، ولما تزل سحابة الحزن مخيمة على ألمانيا المغزوة المجرحة، فالناس في شغل عن الفلسفة والفلسفة في شغل عنهم، ولكن شوبنهاور المتشائم لم يثنه ما أصاب كتابه عن مواصلة السعي، فأعد عدته لحدث عظيم يترك وراءه دوياً، فقذف بكتابه « العالم إرادة وتمثيل » وهو خير كتبه، وأكثرها تمثيلاً لشخصيته. فيه من فلسفته الشيء الكثير، ومن الشعر الشيء الكثير... ولكن ذلك لم يقعد ببعض حاسديه عن أن يحملوا على الكاتب وينالوا منه. فاستهل مطلع الجزء الثاني من كتابه بهذه الأبيات (وهي لغوتي).

« لماذا تنفر منا؟
وترمي بآرائنا...
أنا لا أكتب لأسرك وأبهجك
ولكني أكتب لأعلمك شيئاً »

وقد أسلم كتابه إلى المطابع وولى وجهه شطر إيطاليا موطن الفن، دون أن يرتقب ما يتركه كتابه من تأثير، فقضى فيها زهاء عامين يحيا حياة بسيطة، هادئة. ويرود مواطن الآثار متأملاً في تلك العظمة الغائرة في تلافيف التراب. وقد كانت له ميول غريزية للفن؛ وكم متع النفس – في حداثته – بمباهج الحياة! حتى إذا آب إلى برلين افتتح شعبة خاصة في الجامعة، ولبث شوبنهاور يرتقب عبثاً من يسمع له، أو يأخذ عنـه، حتى يئس من نجاحه، وتبرم بمذهب « هيجل » الذي يحتل ذهن الجامعة، وهو – عنـده – مذهب الجنون والمحال، فما أشد مقته لأتباع هذا المذهب، وللنهود ذوي الأثرة، والنساء اللواتي يخرجن السكون من قلق إلى قلق. عاد إلى إيطاليا ليتم دراساته الفنية، ثم أقام في « فرانكفورت » وبعد جهاد خمسة عشر عاماً مشت إليه الشهرة ذليلة بعد صدود، منقادة بعد جموح، ولقي حتفه عام ١٨٦٠. وهكذا قدر لشوبنهاور أن يصرع مذهبه الجديد مذهب « هيجل » الذي تقطعت أسبابه، وتفككت روابطه، وشغرت الأفكار من بعده وأصبحت تتقبل أي مذهب كان يبعثه مجدد!

يعتقد شوبنهاور بأنه هو الوارث الحقيقي لتراث « كانت » وأن « فيخت وشيلنغ وهيجل ما هم إلا أطفال فاسدون »، يرى أن كانت نحا بالفلسفة منحى جديداً، وسار بها في منهاج واضح، أما أتباع كانت فقد ذهبوا بالفلسفة مذهباً وعراً لا مأمن فيه لسالكه، وأقحموها في بقاع هي فوق « المحسوس » تتعانق أجزاؤها، وتتلاقى أشلاؤها في نقط مظلمة مبهمة. والآن قد آن للفلسفة أن تدرس حقائق الأشياء الموجودة. « وأن الطريقة المثلى في تأمل الوجود، والوقوف على أطواره ما يصل بنا إلى بواطن الأشياء، وحقيقة أكناهها الخفية، ويطلعنا على سر ما يكمن وراء كل حادث، لا تسأل السكون من أين أتى؟ وإلى أين عضى، ولماذا وجد؟ ولكنها في كل لحظة وفي كل خطرة تود أن تعرف ما هو؟ » وهكذا تحول مجرى العلم النظري الذي كان يجري وراء الخيال، وعاد ينقل من التجارب ما سلم بها الاختبار، ويشرح لنا ناموس الوجود حسب وضعه

يقول شوبنهاور: العالم هو أين تمثيلي وتصوري، وأين الحقيقة التي تصورها احساساتي التي يحولها الفكر إلى معارف. وشوبنهاور لا يتخطى بهذه الفكرة ما افترضه معلمه « كانت » من قبل. ولكن العالم عنده هو إرادة، هو ميول عمياء أو غريزة قاهرة عند الكائنات، وفاعلية حساسة عند الانسان، ولكنها

إرادة متمثلة فى كل شئ ، هى جهاد عنيف فى سبيل الحيــاة ، تسعى[1] لبسط سلطتها وقوتها على ما هو خارج عنهــا ، الأرادة هى الشئ القائم بنفسه الذى لا ينفذ إليه فناء . الحياة هى العمل

وقد يُخيَّل للبالغ هذه النقطة من فلسفة شوپنهور أن صاحبها يريد أن يبشر بالفعالية المستمرة والجهاد المتواصل الذى لابد منه لحى ، ولـكن شوپنهاور لا يبلغ بك هــذه النقطة إلا ليحمل الى نفسك فكرته المسمومة التى تجعل من الدنيا كهفاً مظلماً ، ومعتركاً تتطاحن فيه الأرادات . يصرع بعضها بعضاً : ألم يصرع ألماً ، وأمل مغسول بالدمع يصارع أملاً مخضباً بالدم

الحياة جهاد عنيف . والجهاد العنيف سبب باعث للألم والشقاء . والكائن كلما زاد سمواً ورقياً زاد تألمه وشقاؤه . وذو النظام المتسق أكثر شعوراً بالألم من ذى النظام الناقص المضطرب . أما الشجرة فلا تتألم ، فهى غير حساسة . أما رجل العقل ورجل العبقرية فهما أكثر شقاء وألماً ممن خُلقوا محدودى المدارك ، ضيقى الآفاق . والحياة ــ مهما تجردت ــ لنا منها حاجات نريد إدراكها ، ونريد أن ندركها كاملة ، والكمال ظل طارىء لا يثبت ، وقد تجر الحاجات حاجات مثلها مما يجعل الحياة ــ حسب هذا المقياس ــ لا تنطوى إلا على شقاء ، فلا ندرك كل ما نتمني ، ولا نقعد عن التمنى :

وشوپنهاور إزاء هذه الحالات الغامضة ، وجد كاله وراحته فى المذهب البوذى الذى يجرد عن النفس الألم لأنه يقصيه عن الاشتغال فى الحياة ، ويدعوه إلى الفناء المطلق فى الوجود ، والتأمل فى آياته تأملاً ساكناً ، خالياً من الرغبة والشعور

هذا هو شاطئ النجاة القائم التى أوت اليه سفينة شوپنهاور بعد أن طافت فى أكناف المحيط أعواماً ، وهو مذهب كان صاحبه قد استمده من تلك السحابة السوداء التى غشيت ألمانيا فى عقلها وشعرها وفلسفتها . ومن خيبة طويلة رافقته أكثر أيامه وقد وجد الناقدون القائلون بتـأثير الوراثة أن شوپنهاور قد اقتبس من أمه الأيم نظراتها السوداء ، وعن أبيه أخذ الأرادة . ومهما كان تأثير هذه الوراثة المتنقلة بعيداً فى نفس شوپنهاور ، فهو تأثير ضعيف إزاء تلك الموجة التى اكتسحت القطر الألمانى جميعاً بما فيه من أدب ومذاهب وشعر وفلسفة

(١) لعل هذه الارادة هى نفس « الذات المطلقة — عند فيخت — وقد رأينا الذات تسعى لبسط سلطتها وقوتها على ما هو خارج عنها »

ورغم ما بذله شوپنهاور فى إعلاء شأن مذهبــه ، وإظهار خطره ، فقد قسا عليه النقد ووجد فى مذهبه خطراً يهدد أمانى الأنسانية ، ويقتل كل ما حملته معها منذ فجر الخليقة حتى الآن ، وأرادوا من شوپنهاور أن تهديه النتيجة التى بلغها فى أول مراحله « الحياة هى جهاد عنيف » لا إلى مناصرة الألم القوى ، وتثبيت جذوره السامة فى قلوب البشرية ، بل إلى تخفيف أثقاله الرازحة على الـكواهل والغوارب . فيعمل بذلك على إنماء الحياة وتكثيرها ، وجعل رسالته رسالة رضاً وابتسام ، لا رسالة سخط وامتعاض

ولـكن هب أن شوپنهاور كان فاقداً لروح التفاؤل ، فما هو سر انتشار مذهبه الأسود بين الناس ، وقد علموا أن الحياة لا تغدو بمذهبه إلا متجهمة قاطبة . فهل كان شوپنهاور معبراً عما يجول فى صدور قومه ويخفق فى قلوبهم ، كما كان معبراً عما يختلج فى صدره وفى قلبه ؟ قد يكون احتمال الاثنتين معاً من أكبر العوامل التى جعلت من شوپنهاور نبياً للتشاؤم محترماً فى قومه ، وإن كان صاحب التشاؤم قريناً لا يقبل صحبته غراب

لقد كان شوپنهاور ركن تظلله غمامة سوداء ، كثيراً هزؤه ، نسيج وحده فى خلقه . جاءت فلسفته ابنة طبعه ، يحاول أن يقنع بها نفسه ، لا الناس ، لأنه يشعر أن الناس واجد أكثرهم فى الحياة نوراً وسعادة ، ولـكن نفسه لا تبصر من هذا النور شيئاً

على أن أسلوبه الفلسفى هو الذى أحياه ، برغم أن اعتقاده ــ بالبوذية ــ لم يقم أمره كمذهب . لأن العقول لا تتقبله وإذا تقبلته فلن تفهمه . أما أسلوبه فهو حى يغرى ويملأ النفس جلالاً . فتفكيره فيــه جد وصرامة ، يغلب المنطق على أقواله حتى فى الأشياء البعيدة ، يدل استشهاده الـكثير على سعة اطلاع ، وقد بلغت منه قوة الملاحظة مبلغاً عظيماً ، حتى لتأتى الفـكرة منه مبنية على خطأ ، وتأتى أجزاؤها صحيحة سليمة ، كأنها البشاعة مبطنة بالجمال ؛ وهو فياض الخيال الذى يندمج مع الفـكر دون ما نفور . ولعل أعظم ما جاء منه « فكرة الارادة » التى بان تأثيرها فى الأجيال التى عقبت جيل شوپنهاور ؛ فما زالت هذه الارادة تتطور وتنمو حتى أوجدت لنفسها كياناً فى العالم الفلسفى والعالم المادى ، ولعل « نيتشه » هو أكبر مولود وضعته الارادة الجبارة بين يدى الحياة ؟

(يتبع) خليل هنداوى

القصص

من أقاصيص الجاهلية

٣ـ حرب البسوس

بقلم اليوزباشي أحمد الطاهر

تتمـــة

كان للناس عجباً أن اعتزل الحرب الحرثُ بن عباد والفند الزمانى ، وامتزج العجب بالحسرة حين انحازت اليهما عشائرهما . ولكنهما والعشائر قوم جنحوا للسلم ، وأرادوا أن يأخذوا الأمور بالرفق والحلم ، وعز عليهم أن تطير بالقوم عنقاء ، وأن تراق هذه الدماء ، فى مقتل ناقة عجفاء

جلس الحرث بن عباد يوماً على شرف من الأرض واجتمع الناس حوله يقصون عليه من أنباء القتال ما أمضه وزاد فى حسرته . واندفع الحرث فى اللوم والتثريب : يعيب على بكر ما فعل فتاها من قتل كليب بناب من الابل وما جرت فعلته النكراء من كرب وبلاء . قال له الفند الزمانى : « إنك يا حرث قد أسرفت فى اللوم والتثريب ، أما ترثى لهذا الشيخ مرة بن ذهل وقد توالت عليه المصائب وتزاحمت عليه النوائب ، وكانت أخراها قتلة ابنه همام الذى ضن به يوم عرض الفدية . وأنت تعلم مكان همام من قومه وعشيرته ! لشد ما يحزننى قتل هذا الفتى . لشد ما يحزننى قعودنا عن نصرة بكر وقد أسرف المهلهل فى النكال . وهالنى ما يتندر به القوم علينا فى مجالسهم ومجامعهم : قال قوم : إننا جبناء ، وقال آخرون : إننا ضعفاء الرأى قليلو الحيلة ، وقال آخرون إننا أذلاء نتملق تغلب ونصطنع عندهم يداً بقعودنا عن مناجزتهم . وحسبنا بها فرية تحط من كرامتنا وتضع من عزتنا . فهل أنت على رأيك مقيم ؟ »

قال الحرث : « أما مرة بن ذهل فلقد والله عز على مصابه فى ولده وما يحز قلبى إلا مرآه مضرجاً بدمه وموقف المهلهل منه يظهر الأسى ويخفى الشماتة . ولكنك تعلم أن من دخل الحرب لم يأمن عواديها ، وأن من نصب نفسه للقتال فقد استهدف للموت . وإن فى ضن الرجل بفتاه يوم الفداء وبذله يقتل بسيف الأعداء شرفاً لا يطاوله شرف ونخاراً لا يتسامى اليه نخار ، ولا أحب إلىّ من أن يقتل بُجير ولدى إن كان فى قتله صلاح بين ابنى وائل وفى دمه وفاء لدم كليب . وأما مقالة السوء التى تتناولنا بها ألسنة بذيئة فما أحفل بها ولا أقيم لها وزناً . . . . . . »

وفيما هو يتحدث إذ قدم رجل قد أطلق ساقيه للريح يلهث من فرط التعب ولا يكاد يبين : قال الملأ « مابال هذا الرسول يعدو كأنما يسابق الريح ؟ » « والله ما نحسبه إلا أتى ينعى لنا المهلهل ! » وانكب النذير على الحرث بن عباد واحتضنه بين ذراعيه وقال :

ـ « عزاء يا أبا بجير ! عزاءً ! »

قالوا : « يالهول المصاب ! ما وراءك يا غراب البين ؟ »

ـ « عزاء ياحرث ! لقد والله كان أشجع من شهدته الحرب . أفتقعد عن حربهم بعد هذا ؟ »

ـ « قل يا رجل من الذى مات ؟ »

ـ « بجير ولدك ! »

ـ « وكيف مات ! »

ـ « بل قتل . قتله المهلهل بن ربيعة . أفتقعد عن حربهم بعد هذا ؟ »

ـ « مالك والمسألة عن هذا ! أما بجير فنعم القتيل أصلح بين بكر وتغلب

وما أحسب المهلهل إلا قد أدرك به ثأر كليب وجعله كفؤاً له »

قال الناعى : « لا . لقد غابت عنك أشياء . أما علمت أن

المهلهل عند ما طعن بجيراً قال له : (بؤ بشسع نعل كليب) ؟ »

قال الحرث : « أقالها والله ؟ »

ـ « نعم ولقد تجاوبها الحى من أقصاه إلى أقصاه »

قال الفند الزمانى : « يا للمذلة ! ويا للعار ! »

قال الناعى : « وارحمتاه لهمام زين الشباب ! »

قال الحرث : « دعا هماما وقتل زين الشباب . لقد أسرف المهلهل وجاوز الحد . وما عرف لهذا الفتى الذى لم يخط العشرين حرمته وهو ابن أخته . ولم يعرف لى سابقتى وقد كففت عن حربه :

قربا مربط النعــامة منى   لقحت حرب وائل عن حيالى
لم أكن من جناتها علم اللـه وإنى بحرها اليوم صالى

فأحضر له غلامه النعامة وهى فرس له ، فركبها وخرج يدعو العشائر للقتال فلبته يشكر ، وعجل ، وبنو حنيفة ، وبنو قيس بن ثعلبة ، وسادتهم ، وسار فى القوم الفند الزمانى وكان يقوم بألف رجل ، وترأس القوم الحرث بن همام البكرى

* * *

ولما اجتمع القوم وقف الحرث بن عباد خطيباً فاعتذر لهم عن نفسه وعن الفند الزمانى فيما كان منهما من إحجام عن خوض هذه اللجة التى طغت على القوم فأصبحوا فيها مغرقين وقال إنه والفنـد قد استمسكا بالصبر والأناة حتى لم يعد فى قوس الصبر منزع ، والمهلهل قد أسرف فى سفك الدماء وجاوز حد الفداء ، ولم يحتسب لنا قعودنا عن حربه وقد ناصبه قومنا العداء ، وها هو ذا قد قتـل بجيراً ولدى وإنى لأشهدكم ـ علم الله ـ على أننى حين بلغت مقتل بجير طابت نفسى واطمأنت ظناً بأن المهلهل سيجد فى قتله غناء عن الحرب وكفاء للفدية ، ولـكننى أسرفت فى الظن الجميل ، وأسرف المهلهل فى التنكيل ، فالسكوت بعد اليوم لا يزكو بالحر ، ولا يبرره عذر ، يا قوم ! لا أدعوكم للقتال انتقاماً لعزة ديثت بالصغار ، ودماء جرت كالأنهار ، ودفعاً للمذلة والعار . . . »

ثم نظر إلى الحرث بن همام البكرى وقال له « وأنت يا ابن همام هل أنت مطيعى فيما آمرك به ؟ قال : « ما أنا بتارك رأيك إلى ما هو شر منه » قال : « اعلم أن القوم مستقلون لقومك فى السلم وازدادوا جرأة فى الحرب فلنقاتلهم بالنساء فضلاً عن الرجال »

قال : « وكيف قتال النساء ؟ » قال : « تعمدون إلى كل امرأة لها جلد ونفس ، فتعطى كل واحدة منهن اداوة وهراوة ، فاذا صففت أصحابك فصفهن خلفهم فان ذلك مما يزيد الرجال جلداً وشدة ونشاطاً ، ثم تعلموا بعلامة تعرفها نساؤكم فاذا خرج منكم إنسان فى القتال أمرن بسقيه ، وإذا مررن من عدوكم بانسان ضربنه بالهراوة فقتلنه » وفعل الحرث بن همام ما أمر به الحرث بن عباد . وكان هو أول من أشار بحشد النساء مع الرجال . وحلقوا رؤسهم علامة بينهم وبين النساء . وسمى هذا اليوم يوم « تحلاق اللمم »

* * *

وخرج النساء من دورهن أسرابا محتشدات ، وفى يد كل واحدة اداوة وهراوة ، ووقفت تلقاء هن إحدى بنات الفند الزمانى وصاحت : « يا معشر القوم ! أحب إلينا أن نموت مع الرجال فى ساحة الوغى أحراراً ، من أن نقبع فى دورنا ذلة وانكساراً . فاما عودا مع رجالنا منتصرين ، أو هلا كامع الهالكين ، وسيرى القوم أن المرأة البكرية لا تقل عن الرجل تحمساً للشرف وحفظاً للـكرامة ، وحرصاً على الثار . يانساء الحى ! حى على القتال ! حىّ على القتال ! »

ثم برزت أختها ووقفت إلى جوارها وتغنت الفتاتان بأبيات ترهف الشعور ، وتوغر الصدور

وتدافع القوم رجالاً ونساء للقتال : فما كنت ترى إلا أعناقاً تمتد إلى الموت ، وأجساما تتزاحم على الردى ، وصدوراً تهبط وتعلو من فرط الجوى . ثم حمى وطيس الحرب ، واشتد البلاء . واشتبكت الأسنة ، وسالت الدماء ، وظهرت تغلب جمرة تستعر استعاراً ، وناراً تضطرم اضطراماً ، وانقضت على بكر تحصد أعناق رجالها ، وتطيح رقاب أبطالها ، حتى تراجع البكريون وأيقنوا بالفناء ، وظنوا أن لا كاشف لهـــذا البلاء ، وفيما هم يتعثرون فى انكسارهم أقبلت كرمة بنت ضلع أم مالك بن زيد فارس بكر وغنت :

نحن بنات طارق   نمشى على النمارق
مشى القطىّ البارق   المسك فى المفارق
والدر فى المخانق   إن تقبلوا نعانق
عرس المولىّ طالق   والعار منه لاحق

وما أشد ما يفعل الغناء والنسا فى نفوس الأبطال . كان لهذه الأنشودة نغم كأنه خيوط انتظمت عليها الصفوف واتحدت فى سلكها القلوب ، بل كان النغم قبساً من نور سماوى نفذ إلى القلوب فأضاءها ، وإلى النفوس فأنارها ، وإلى العزائم فقواها ، وإلى الهمم فدعاها . وسار القوم على هداه إلى نصر مبين . تدافعوا على العدو واقتحموا الصفوف واستباحوا المعاقل ، وانكشف الهول فاذا المهاجم يرتد ، وإذا المهزوم يشتد ، وإذا تغلب بين قتيل وأسير وشريد

* * *

وانكشفت الغاشية ، ونظر البكريون فيما بينهم فاذا بالحرث ابن عباد قد خلت منه الصفوف . فجزعوا وفزعوا . وذهبت بهم الظنون كل مذهب . وفيما هم فى حيرتهم إذ أقبل فارس ينهب الأرض نهباً . قالوا لعل عنده الخبر اليقين . قال : « كأنى بكم تبحثون عن الحرث بن عباد ، سأقص عليكم خبره — « ذهب فى أثر بطل من أبطال تغلب وانقض الحرث عليه كما ينقض النسر على الفرخ ، وإذا بطل تغلب بين يديه كالعصفور قد هيض جناحه وقال له الحرث : أدللنى على عدى بن ربيعة المهلهل وأخلى عنك ؟ قال الأسير : أدلك عليه إن وثقت من وعدك . قال الحرث : قد وعدتك . قال الأسير : أنا المهلهل ! . فما وسع الحرث إلا أن يفى بوعده ويخلى الرجل »

صاح القوم صيحة نكراء وهاجوا وماجوا . قالوا : « لقد أسرف الحرث » ، « يخلى المهلهل بعد أسره ؟ » « أليس المهلهل قاتل ولده ؟ »

« قلنا إن الحرث ضعيف الرأى » . « بل الحرث جبان ! » « كانت فرصة ولن تعود » . « ولكن هو الوفاء » . . . .

— ولكن اسمعوا ياقوم . سماع ! سماع ! سماع : لقد بالغ الحرث فى مذلة المهلهل ومهانته . فما تركه إلا وقد جز ناصيته كما يجز صوف النعاج »

وفيما هم يتندرون على المهلهل وجز ناصيته ، ويختلفون فى تأويل مسلك الحرث ، إذ أقبل الحرث وعلى وجهه آثار مختلفة فيها الأعياء وفيها الزهو وفيها الأسف وفيها الرضى . فأقبل عليه القوم بعضهم يشد يده مهنئاً ، وبعضهم ينحى عليه باللائمة ، وبعضهم يقره على وفائه بالعهد

قال الحرث بن عباد : « وما تركته حتى جززت ناصيته عبرة ونكالاً ، أما تخليته فما كنت لأعدل عنها ، وقد وعدت الرجل وأنا أجهله ، ولو قد نكثت بعهدى للحقت بى سبة لايمحوها الدهر ولا يغفرها الأهل

لهف نفسى على عدى ، ولم أعـ رف عدياً إذ أمكنتنى اليدان ! »

* * *

قال الراوى : ومنذ ذلك اليوم فارق المهلهل قومه ونزل فى مذحج ولم تقم له قائمة ، وظل البكريون من رحيق النصر ينهلون

اليوزباشى أحمد الطاهر

البريد الأدبي

تعليق وتعقيب

لامرتين

قرأت فى « الرسالة » الغراء فى باب « من هنا ومن هناك » من العدد التاسع والسبعين ، كلمة عن نسب لامرتين الشاعر الفرنسى الملهم واحتمال أن يكون متسلسلاً من أصل عربى كما كان يقول هو عن نفسه . وللتعاون مع الباحث فى هذه المسألة أقول :

إننى وجماعة من الأدباء ، منذ مدة قريبة كنا تذاكرنا فى هذا الموضوع ، وبعد استعراض ماقيل فيه مما جلبه حضرة الأستاذ صاحب المجلة ، جوّزنا على تقدير عربيـة الشاعر أن يكون بين اسمه واسم أسرة العمارتى صلة ما ، ولا سيما أن أصل الاسم هو ألا مرتين أى ألعمارتى كما نـكتبها بالحروف الافرنجية . وأسرة العمارتى هى من الأسر المنتشرة فى هذه الجبال الريفية ، والتى يغلب أن يكون أهلها من عرب الأندلس المهاجرين إلى المغرب . فهذا مما يزيد قوة الاعتقاد بعربية لامرتين . نعم هـذه النون التى فى الطرف ليست فى اسم الأسرة المذكورة ، ولـكن لا مانع أن تكون من تصرف الألسنة الفرنجية فى الاسم كما هو معهود منها اليوم مع هذا الاختلاط العظيم ، فكيف به قبل ؟ وعلى كل حال فهذا التعليق القصير ربما يأتى بصيصاً من النور على هذا البحث الطويل

بشر بن عوانة

كذلك قرأت فى الباب نفسه من نفس عدد المجلة بحثاً صغيراً مضمونه الشك فى حقيقة حياة هذا الشاعر العربى وترجيح أن يكون شـخصية خرافية من شخصيات المقامات كأبى الفتح الاسكندرى والحرث بن همام ؛ ذلك لأن الـكاتب لم يقف على اسم بشر هذا فى سفر من أسـفار التاريخ ولا فى كتاب من كتب الأدب التى قرأها الا فى مقامات بديع الزمان وكتاب تاريخ أدب اللغة العربية لجرجى زيدان وكتب المحفوظات للمدارس المصرية فرجح عنده إنـكار وجوده . وبما أننى كنت وقعت على اسم بشر المذكور فى غير هذه الـكتب ، رجعت إلى المظان التى أذكر أننى رأيته فيها فوجدت من أقربها كتاب « المثل السائر » . وقد جاء ذكر بشر فيه فى الصفحة ٦٤ (طبع مصر بالمطبعة البهية) حيث قال : « وكذلك وردت لفظة مشمخر فان بشراً استعملها فى أبياته التى يصف فيها لقاءه للأسد فقال :

وأطلقت المهند من يمينى ... فقدّ له من الأضلاع عشرا
فخرّ مضرجاً بدم كأنى ... هدمت به بناء مشمخرا »

وخدمة للأدب فقط كتبت هذا التعقيب ، وإلا فحياة بشر لا تثبت بمثل هذا الذكر استطراداً ، على أن قصته التى حكاها البديع تسف حتى تلتحق بالخرافات لما فيها من التناقضات(1)

طنجة — عبد الله كنون الحسنى

حول رواية نهر الجنون

. . . قرأت فى العدد (٨٤) من الرسالة الغراء مقالاً للأستاذ (جورج وغريس) تحت عنوان (سياحة فى نهر الجنون) ... ذكر فيه خلاصة موجزة للقصة التمثيلية (نهر الجنون) للأستاذ توفيق الحـكيم ، وذكر كيف أن المرحوم جبران خليل جبران نشر شبيه هذه القصة فى كتابه الجنون . وتساءل الأستاذ (جورج وغريس) : هل هناك اقتباس ؟ ! وأشارت الرسالة فى نهاية المقال إلى أن مصدر الكاتبين قد يكون واحداً . .

وقد نشر نفس القصة الكاتب التركى المرحوم « عمر سيف الدين » سنة (١٣٣٦) رومية أى منذ خمس وعشرين سنة تقريباً فى كتابه المعبد الخفى « كيزلى معبد » تحت عنوان (الماء الذى شربه الجميع ، أسطورة صينية) صفحة (١٢٧) والقصة تتلخص فيما يلى :

كان (لينغ ـ يو) ملكاً عادلاً حكيماً ، توفر فى أيامه الهناء للرعية ، فجاءه فى أحد الأيام ساحر وأعلمه أن أمطاراً غزيرة ستهطل مدى أيام ، وكل من يشرب ماء خالطته قطرة من هذه الأمطار يصبح مجنوناً لا محالة . فأمر الملك بملء صهاريج القصر وكل ما فيه من أوان ماء نقياً عذبا لينجو من شرب الماء المسبب للجنون . . وبعد أيام بدأت الأمطار بالتهطال ودام انهمارها أياماً

(١) ذلك الى أن ابن الأثير صاحب المثل السائر من رجال القرن السابع ، وبديع الزمان من رجال القرن الرابع ، فلا يبعد أن يكون ناقلا عنه كغيره فالعبرة إذن بالنصوص التى تسبق زمان البديع (الرسالة)

وأسابيع . . تخالط ماؤها ماء الينابيع والآبار فجن السكان كلهم ، وانتشروا فى الأزقة والساحات يصيحون ويصرخون ، وتجمع قسم كبير منهم حول قصر الملك وأخذوا يسخرون منه ومن صحبه الذين ظلوا عقلاء حتى تلك الساعة بفضل الماء المخزون فى صهاريج القصر . فكان إذا بدا واحد من سكان القصر فى إحدى الشرفات صاحوا بصوت واحد قائلين : « مجنون ! انظروا المجنون ! » وأصبحت الحالة لا تطاق ، فلم ير الملك بداً من أن يشرب هو أيضاً من ماء الجنون ، فتناول منه قدحاً وهو يقول : « لا لزوم لبضعة عقول صحيحة بين هؤلاء المجانين . . ! »

ومرت الأيام والسنون . . وتأصل هذا النظام الجنونى وأطلقوا عليه « نظاماً اجتماعياً » ، وزُج كل من عاوده عقله من هؤلاء المجانين فى أمكنة أطلق عليها (مستشفيات المجاذيب) . . ومنذ ذلك الحين لا ينفك العلماء من ترديد هذا القول : « الصين منبع الحكمة والعقل . . . »

***

فالقصة التى نشرها المرحوم جبران والأستاذ الحكيم ليست سوى أسطورة صينية تناقلتها أكثر اللغات

دمشق — الدكتور محمد سالم

رسائل جديدة لبلزاك

لأدباء الغرب شغف خاص باستقصاء الآثار والرسائل الخاصة لأعلام الكتاب والمفكرين ، وكثيراً مايؤدى هذا الشغف الى نتائج أدبية باهرة ، فيظفر البحث بآثار ورسائل جديدة لها قيمتها فى درس شخصية صاحبها . ومنذ بضعة أعوام ظفر الكاتب الفرنسى مارسل بوترون بطائفة من رسائل بلزاك الخاصة الى صديقته مدام « زولما كارو » . واونوريه دى بلزاك هو القصصى الفيلسوف الفرنسى الذى تعد آثاره من أقيم ما أنتج الأدب الرفيع فى القرن التاسع عشر . ونشر مسيو بوترون بعض هذه الرسائل فى مجلة « العالمين » سنة ١٩٢٣ ؛ ثم ظفر بطائفة جديدة منها ، وجمع الجميع فى كتاب واحد صدر أخيراً ، وعنوانه « مراسلة لم تنشر لبلزاك »

وليست هذه الرسائل رسائل غرام كما يتبادر الى الذهن ، ولكنها رسائل صداقة خالصة ؛ وهذا النوع من المراسلة نادر فى حياة أكابر الكتاب إذا كتبوا لامرأة يشغفهم سحرها ، ولكن بلزاك كان فيلسوفاً . وقد جمعت بينه وبين مدام زولما كارو ظروف عرضية ، فقد كانت تقيم مع زوجها الضابط كارو حوالى سنة ١٨٢٠ بجوار أخت لها تدعى لور وهى زوجة مهندس يدعى سير فيل ، وكان بلزاك يزور صديقه المهندس سير فيل وزوجه ، فتعرف بالطبع بأختها مدام زولما ، ونشأت بينهما صداقة حميمة ، وكان بلزاك يشعر نحو مدام زولما بعاطفة حنان خاصة ليست هى الحب ، وكانت مدام زولما تبادله عطفه وصداقته ، ولما نقل زوجها الى بعض مدن الأقاليم ، سافر بلزاك لزيارتها ، وأقام حيناً الى جانبها ، وكان أثناء بعده عنها فى باريس ، وحينما تحتجزه صاحبته المركيزة دى كاسترى ، ينفس عن نفسه بالكتابة الى مدام زولما ، وتكتب هى اليه ، وكان بلزاك يودع هذه الرسائل كثيراً من أسرار روحه وقلبه وآماله وشجونه ، ويصوغها فى قالب رفيع من البلاغة ، وذهب فى إكباره وصداقته لمدام زولما الى حد أن أهدى اليها قصته « منزل نوسنجان »

ثم وقع بلزاك فى حب الكونتس هانسكا ، وأثار هذا الغزو الجديد فى قلبه شجناً واضطراباً ، فكان كلما غلبه الشجن ، أو ضاقت به السبل وأرهقه الدائنون يفر الى مدام زولما فيقيم مع هذه الأسرة المحبوبة أياماً يروح فيها عن نفسه خلال الأيناس والزهر

وبعد فترة طويلة من الزمن قضاها الكاتب الكبير فى متاعب وأزمات مختلفة اقترن بصاحبته الكونتة الأجنبية سنة ١٨٥٠ ؛ ولكنه لم يعش بعد زواجه سوى ثلاثة أشهر ، ولكن مدام زولما عاشت بعده أعواما طويلة ؛ ولها اليوم حفيدة على قيد الحياة تدعى مدام جورج بابيل ؛ واليها يهدى مسيو بوترون رسائل بلزاك الجديدة

خمسون عاماً لوفاة فكتور هوجو

تستعد دوائر فرنسا الأدبيــة للاحتفال بالعيد الخمسينى لوفاة شاعر فرنسا الأشهر فكتور هوجو الذى توفى فى يونيه سنة ١٨٨٥ وسيجرى الاحتفال بهـــذه الذكرى فى جميع أرجاء فرنسا ، ويوضع تحت رعاية الحكومة الرسمية ، ويلقى وزير المعارف بهذه المناسبة خطاباً رسمياً على قبر الشاعر اتباعاً للتقاليد المعروفة ، وقد رأت إدارة مسرح الكوميدى فرانسيز ، وهو مسرح الدولة أن تشترك فى الاحتفال بهـذه الذكرى ، وأن يكون اشتراكها عملياً ، وذلك بأن تخصص موسماً خاصاً لتمثيل بعض روايات هوجو الشهيرة يبتدئ فى مارس وينتهى فى أول يونيه ، وهو تاريخ وفاة الشاعر ، وأن يمثل خلال هـذا الموسم من رواياته القطع الآتيـــة : « روى بلاس » ، « هرنانى » ، « ماريون دى لورم » ، « لوكريس بورجيا » وغيرها

الكتب

أدولف

للكاتب الفرنسى بنجامان كونستان
ترجمة الدكتور حسن صادق
يطلب من مكتبة النهضة المصرية وثمنه ١٠ قروش

لا يزال فن القصص عندنا فى بدء مرحلته الأولى ، ولازال أدباؤنا يتلمسون طريقهم الى القصة ويتوقون الى رؤية هذا الفن من فنون الأدب ، وقد انقاد لهم ووصل فى أيديهم الى مثل تلك الدرجة التى وصل اليها فى الآداب الغربية ، ذلك لأن القصة فى منحاها وطبيعة تركيبها ، من أهم وسائل التثقيف وأيسرها ، كما أنها من ألذ ضروب الاستمتاع وأقربها الى القلب والذهن ، والقصة الجيدة بلا شك هى الحياة فى ناحية من نواحيها ، ففيها مافى الحياة من معان ، وفيها مافى الحياة من اضطراب

وهذا الافتقار فى أدبنا الى القصة ، يجعلنا نرحب بكل تعريب جيد لشهيرات القصص فى الأدب الغربى ، إذ بذلك تتوفر لدينا النماذج وتتنوع المثل ، فضلاً عما يكون لمثل تلك القصص من عظيم الأثر فى تهذيب الذوق وصقله ، وإيقاظ العواطف وحسن توجيهها

نعم إن لكل أمة ذوقاً ، ولكل أمة شرعة ومنهاجاً ، ولكل أمة وجهة تتجه اليها حسب ماركب فى طبيعتها من ميول ، وفن القصص ملكة لاتكتسب ، ولكن الأديب المصرى الموهوب مع ذلك لابد له من نماذج ، وهو كفيل أن يشكل قصته على هدى تلك النماذج حسبما يتفق مع بيئته

ولقد اختار الدكتو حسن صادق قصة أدولف ، فنقلها الى العربية ، وهى من القصص الفرنسية التى حازت عظيم الشهرة فى أوربا كلها ، وهى واحدة من تلك القصص التى تلائم كل بيئة وكل عصر ، فليست من ذلك النوع المحصور الذى يتقيد فى وضعه بغاية محدودة كالدعوة الى اصلاح اجتماعى فى ناحية من نواحى الحياة ، أو من ذلك النوع الذى تصور فيه آمال ومثل عصر من العصور ، حتى إذا انقضى زمنها أصبحت لاغناء فيها ، بل هى من تلك الآثار الخالدة التى تساير الحياة وتغالب الفناء ، وحسبك أنها قطعة فنية تقرأ فيها خطرات نفس كبيرة أملتها تلك العاطفة المشبوبة ، عاطفة الحب فى شرخ الشباب

ولما كانت هذه ميزتها ، فأنا أعتقد أن المترجم الفاضل قد أحسن الاختيار فقدم الى قراء العربية أثراً أدبياً جميلاً ستلذهم قراءته وسيعجبهم ماجاء فيه من روعة التعبير عن خلجات النفس ومنازع القلب ، ولقد أحسن أيضاً حين قدم لكتابه بفصل طويل دقيق ، شرح فيه حياة المؤلف وحياة العصر الذى عاش فيه ، مما جعل كتابه يجمع إلى اللذة الفنية ، لذة ذلك البحث التاريخى القيم

أما أسلوب الترجمة فمتين مشرق ، تحس به فى أول الكتاب عسيراً بعض العسر ، ولكنه لا يلبث أن يلين ويعذب ثم يطرد ، وقد تتراءى فى بعض مواطنه بعض الصور والتراكيب الفرنسية نشأت من محافظة المترجم على دقة الترجمة ، ولكن الأسلوب على الجملة صحيح التركيب ، فصيح الأداء ، يشهد للمترجم بما بذله من الجهد وما تحراه من الأجادة

أما عن القصة فى ذاتها فانى مع شديد إعجابى بها وتأثرى بقراءتها تأثراً عميقاً ، قد أحسست فيها ظاهرة أحسب القراء جميعاً سيحسونها مثلى ، ذلك أن خواطر المؤلف كلها تدور حول نفسه وحول حبيبته ، مما ضيق مجالها وتركها خالية من ذلك الجو الشعرى الذى يوجد فى مثل تلك الآثار الأدبية العظيمة ، ومن تلك الأفكار الفلسفية الباهرة التى يعلق بها أصحاب تلك الآثار على ما يصادفهم من ظروف ومواقف ، فيزيدونها روعة وقوة ، كما أن القصة تكاد تكون خالية من الأوصاف الطبيعية ومن أوصاف الرجال والبيئات . فهى من ناحية التعبير عما فى داخل النفس ، أو بعبارة أخرى من الناحية المعنوية البحت التى تدور حول عاطفة الحب قد بلغت غاية الجودة ، ولكنها بالاقتصار على ذلك فقدت كثيراً من الصور والأطياف التى تشعر المرء لدى قراءة القصة بصدى الحياة

هذا وإنى لأشكر للدكتور حسن صادق مابذل من مجهود وأرجوه أن يتحف قراء العربية بين حين وآخر بمثل هذه النفحة الساحرة من أدب الغرب ؟

الخفيف

أغانى الكوخ

نظم الأديب محمود حسن اسماعيل

أنتقل بالقارئ إلى هـذا الديوان المسمى أغانى الكوخ ؛ لناظمه محمود حسن اسماعيل ، ويقع فى نحو مائة وخمسين صفحة ، وقد أخرجه صاحبه فى صورة أنيقة جذابة تشهد له بحسن الذوق ولعلك ترى فى هذا الاسم « أغانى الكوخ » ما ترتاح إليه نفسك وخيالك ، فاذا مضيت تقرؤه حمدت لناظمه هذه الروح المصرية ، بل هـذا الاعجاب الشديد بجمال الريف وبهائه ، مما يعد خطوة محمودة نحو ماننتمني بلوغه فى نهضتنا الأدبية من صبغ أدبنا بالصبغة المحلية الطبيعية ، وتصوير بيئتنا تصويراً يحفظ لثقافتنا لونها ، ويبعد عن أدبنا ما يوشك أن يعلق به من بهرج زائف وتكلف مملول

وأذكر أنى قدمت للقارئ على صفحات «الرسالة» من أمد قريب (ظلال القمر) للأديب أحمد مخيمر وقد أعجبتنى منه هذه الروح المصرية التى أراها أكثر ظهوراً وأتم نضوجاً فى ديوان الأديب محمود حسن اسماعيل ، فان معظم قصائده تدور حول المناظر الريفية المحبوبة فى صعيد مصر مع دقة فى الوصف وصدق فى الأحساس أعتبرهما باكورة طيبة لا بد أن ستتدرج فى سبيل الرقى إلى الكمال .

بيد أنى وقد أعجبنى صدق إحساس شاعرنا ، أراه يأتى فى شعره ببعض الأخيلة التى لم أستطع أن أصالح ذوقى عليها كما جاء فى قصيدة الكوخ وفى قصيدة « تبسمى » و« القيثارة الحزينة » و « النعش » و« سنبلة تغنى » و « عند زهرة الفول » ، فقد ورد فى تلك القصائد بعض المعانى الجزئية التى لا تتواءم وطبعه

هذا إلى استعماله بعض المجازات والاستعارات كتصفيق الألحان فى القلب ، وأجفان القلاع ، وقوله إنه رشف قصائده من ثغر عشيقته وغير ذلك مما لا يتسع له المجال

ولست أغضب الأديب محمود حسن اسماعيل فيما أعتقد ، إن نبهته فى إخلاص الى الاهتمام بتجويد فنه والاهتمام بمعانيـه ، فديباجته فى الجملة مشرقة ، ولغته سليمة وألفاظه جيدة ، كذلك يجدر به أن يولى قوافيه من العناية أكثر مما يفعل ، ولئن اهتم بذلك فسوف نرى منه فى المستقبل القريب شاعراً مصرياً رقيقاً .

الخفيف

شعراؤنا الضباط

للأديب محمد عبـد الفتاح ابراهيم

يجد القارىء هذا الكتاب كما يتضح له من عنوانه ، تراجم لشعراء مصر من الضباط ، وضعها الضابط الأديب محمد عبد الفتاح ابراهيم ، ولعل القارىء يشاركنى شعور الغبطة حين يتجلى له هذا الاخلاص من المؤلف لطائفة من أهل مهنته ، كاد ينسى معظمهم المشتغلون بالأدب ، على الرغم مما قدموه فى ميدان الأدب من خدمة اللغة عامة ، وفن القريض خاصة

ترجم هذا الأديب الفاضل للبارودى ، وحافظ ابراهيم ، وعبد الحليم حلمى المصرى ، ومحمد فاضل ، ومحمد توفيق على

وقد سار فى دراسـته فيما يتعلق بهؤلاء جميعاً على وتيرة واحدة تقريباً ، فكان يأتى بلمحة عن تاريخ كل شاعر ، مبيناً البيئة التى نشأ فيها ، ثم يذكر المناسبات التى حركته الى نظم القصـيد ، موردا بعض الشواهد من مأثور نظمه ومن مشهور قصائده

وإنى وان حمدت للضابط الأديب وفاءه واجتهاده ، أحس أنه كان فى كتابته يقصد إلى الوفاء أكثر مما يقصد إلى الدرس ، ولن أظلمه إذا قلت أنه فى بحثه كان يميل إلى سرد المعلومات مهتماً باستيعابها دون تمحيصها ، فلم تكن له طريقة محدودة ، أو بعبارة أخرى لم يكن قوام عمله التحليل الأدبى الذى يستند إلى الفن وإلى الخبرة بالحياة ، ولست أنكر هـذه الخبرة عليـه ، ولكننى لم أتبين صداها فى بحثه ، وكان يخيل إلى أثناء كلامه عن البارودى ، ثم عن حافظ — على الخصوص — أننى أستمع إلى محدث فى مجلس من مجالس الأدب ، لا يتقيد فيه من يتعرض لحياة شاعر بأوضاع فنية أو يراعى وحدة الموضوع وسبيل التدرج فيه . هذا إلى أنه كان يترك الأمر أحياناً لغيره ، فيعرض أقوال من كتبوا عن حافظ دون أن يتناولها بتعليق

على أن كتابه على الرغم من هـذه المآخذ ، جدير أن يثير اهتمام أدبائنا بهؤلاء الشعراء ، وهو وفاء يثاب عليه المؤلف ، واجتهاد يستحق من أجله الثناء

الخفيف